قلوب الغرباء

السعيد صالح

قلوب الغرباء / رواية
السعيد صالح
الطبعة الأولى

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج
موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
تدقيق لغوي :
محمد الأقطش
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٤٨٣٩

قلوب الغرباء

السعيد صالح

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهـــــداء

إلي بريق عينيها الذي يبعث

في

قلمي الحياة



مدخـــــل

اقترب يوسف من أحد الرفوف الزاخرة بنفـــائس الكتـــب تناول كتاب بلي غلافه. شحب لون عنوانه "المفكرون" لهنري توملس .. أخذ يقلب صفحاته .. استوقفته أخبار مأدبة أقيمت في مترل الشاعر الأثيني أحاثان .. ناقش الضيوف موضـــــوع أثير لديهم هو الحب .. أخذ كل منهم يعـــرض مـــا يـــراه .. استرعى يوسف رأي الشاعر أرسطوفان. حيث خـــرج علـــي رفاقه بنظرية في الحب غاية في الغرابة تقول :

كان الجسدان في غابر الزمن ينتظمهما جسد واحد مستدير كالكرة .. له أيد أربع وأرجل أربع ووجهـــــان .. يتحـــرك في سرعة فائقة .. يستخدم في سيره أطرافـــه الثمانيـــة كأنهـــا عوارض عجلة تدور حول نفسها باستمرار .. تهيـــأت لهـــذا الجنس المذكر المؤنث قوة رهيبة .. فاتسعت مطامحه اتـــساعاً لا يحد .. وتجرأ علي الارتقاء إلي الـــسماء ومهاجمـــة الآلهـــة .. فاهتدى زيوس كبير الآلهة إلي فكرة سديدة .. وهي شطر كلاً من هذه المخلوقات إلي شطرين وبـــذلك تـــضعف قوتهـــا إلي النصف ويتضاعف عدد من يموت منها.

وهكذا صار الجسمان يتحرقان شوقاً إلى الإندماج مرة ثانية في جسم واحد .. هذا الحنين إلى الاندماج هـــو مـــا نـــدعوه "الحب"

همس يوسف في دهشة :

- يا لها من نظرية .

حب الرجال دنيء لكنه قد

يسمو إلى ذري الآلام

فيوصل إلى الله

أناتول فرانس



(١)

ضوء القمر الشاحب .. حبيبات المطر الخفيف .. خشخشة سعفات النخيل المتمايلة للرياح الباردة .. الفوانيس السوداء المتراصة بنورها الخافت .. هدير بحر الإسكندرية المليء بالأسرار .. الكل يعزف مقطوعة كلاسيكية خلابة تليق بالكيان المخروطي العملاق المرصع بأبجديات العالم .. الأسقف الزجاجية تعمل كطاقات نور ربانية .. الأرضيات الجرانيتية .. أدواره المكشوفة علي هيئة حدائق بابل المعلقة .. كل دور يزخر بالرفوف الممتدة الحبلي بفروع المعرفة المتنوعة .. المقاعد المريحة للقراء .أجهزة الحاسوب .. قاعات الندوات .. غرف الباحثين .. كل هذا يبعث في صدر محب المعرفة نشوة تجعله يتنسم عبق مكتبة بطليموس الخالدة.

***

في إحدى القاعات المزدحمة .. وقف يوسف مراد يتحدث ناقداً إحدى الروايات بقوامه الرشيق ومظهره الأنيق .. أفاض بالكلام وكان من الواضح أن الرواية لم تنل إعجابه فارتفع صوته قائلاً :

- أخيراً أعترف رغم أن الرواية مليئة بالإسقاطات الجنسية والعلاقات المريضة بين أبطالها إلا أنها رواية جيدة الصنع من

حيث الحبكة الدرامية ورسم الشخصيات مما يدل على براعة الكاتب وتمكنه من أدواته .. لكن هذا لا يشفع لأفكار الرواية الهدامة التي تستهدف قيم وأخلاقيات المجتمع ونحن نعلم أن الأدب ما هو إلا مرآة تعكس أحوال المجتمع وأنا أجد هنا أن المرآة مشروخة بل مشوهة وشكراً.

وجهت مديرة الندوة الدعوة لناقد آخر بالكلام .. وقف رجل في العقد الرابع ذو قسمات صارمة ولحية صفراء قصيرة قائلاً بصوت جهوري :

- أتفق مع زميلي بأن الرواية مليئة بالتشوهات الأخلاقية التي تصل إلى حد القبح .. لكني أختلف معه فأنا أجد أنها تدق نواقيس الخطر فيما يعتري حياتنا من تغيرات آخذة في الاستفحال بالشكل الذي يهدد كياننا الإجتماعي .. كما إنني لا أستطيع أن أغفل ما تحويه الرواية من العبر للإنسان ذى القلب المرهف الذي يعيش الحب ويعرفه.

عجز يوسف عن متابعة زميله حيث شرد ذهنه وراء عبارة "الإنسان ذو القلب المرهف الذي يعيش الحب ويعرفه" لقد زلزلته العباره فلم يعد يري في القاعة غير لبنى .. ذلك المخلوق الرقيق الذي يكتوي بحبه في صمت .. تمنى أن تتلاقى نظراتهما ليسبح في عينيها الساحرتين .. عندما رآها لأول مرة أعجبه

سعة أفقها ورقي ذوقها وجمالها الهادئ وتساءل كيف يحتمل هذا المخلوق الرقيق أن يتعايش مع زوج درج علي الحياة المادية الجافة الخالية من أي مشاعر .. حبيس مشرطه الطبي وإدارته لمستشفاه.

يفيق يوسف من خيالاته على صوت مديرة الندوة تعلن نهايتها .. يلتف الحضور حول الناقدين ما بين متفق ومعارض.. ينفرد يوسف بأصدقائه .. يدعونه لقضاء السهرة معهم .. يعتذر لسفره في الصباح الباكر إلى القاهرة .. لكنه يعدهم بحضور عيد ميلاد صديقه جمال الأسبوع القادم .. يودعهم على عجل وهو يتحاشى نظرات لبنى .. يخرج مسرعاً إلى ساحة المكتبة الرحبة تحتضنه النماذج التشكيلية الرائعة .. النسمات الباردة تنعش جسده دون عقله الذي كان ما يزال محموماً بخيالاته تجاه لبنى وشعوره بالعجز وقلة الحيلة .. يقترب من الدرجات المؤدية إلي الطريق .. يهبط مسرعاً .. يقرر أن يسير على الكورنيش ذلك الممشى التاريخي الشاهد على الكثير من الأحداث والوقائع .. هل كان يتصور إسماعيل باشا صدقي عندما جاءت له فكرة إنشاء برواز جميل لعروس البحر الأبيض بأنه سيكون المتنفس لهموم الملايين من البشر ما بين عاشق ولهان وضائق بمصاعب الحياة يبثون للبحر أحزانهم.

وقف يوسف متأملاً الأمواج المتكسرة على الصخور العملاقة والزبد المتبقي بين ثناياها مفكراً في أصدقائه ومعارفه الذين يحسدونه على حياته الناجحة الطليقة وكأنهم لا يعرفون ما مر به من مصاعب طوال حياته .. بداية من معاناة التهجير حين دمرت بورسعيد تحت وطأة نيران القنابل لتبدأ رحلة الشقاء .. جيل من الشباب فطم على مرارة الهزيمة وكابوس النكسة .. حط الرحال بأسرته في مدينة الإسكندرية بحي الأزاريطة الواقع بين محطة الرمل وبداية شارع بورسعيد الذي كان يقطنه جالية كبيرة من الإيطاليين واليونانيين .. كان الحي يحتفظ بسمته الغربية في المباني .. أسماء المتاجر.

كثيراً ما كان يقف في شرفته المطلة على الكورنيش يستنشق هواء المتوسط العليل متذكراً طفولته وهو يشاهد صديقه هشام يبني قلاعاً من الرمال .. يقف متباهياً بها للحظات قبل أن تأتي الأمواج لتهدمها .. يزمجر غاضباً .. يهدئه يوسف ويشرعان في بنائها من جديد.

لا ينسى يوم رجع من مدرسته .. رأى تجمعاً من الجيران أسفل المنزل .. الكل يرمقه بنظرة شفقة .. نظر لهم بعيون متسائلة .. شعر بنذير سوء .. ارتعدت أوصاله .. ارتقى درجات السلم وسط ضجيج دقات قلبه الصارخة .. الأم متشحة بالسواد تحتضنه باكية ..رمق أباه مسجى على سريره

في صمت .. اقترب .. كان وجهه هادئا يسبح في بحــر مــن السكينة .. طبع قبلة على جبينه .. يومها قرر أن يترك دراسته ويعمل فمعاش أبيه لا يكفي ليسد رمق الحياة .. رفضت أمــه بإصرار عملت بالحياكة للجيران .. التحق هو بكليــة الآداب استهوته اللغة العربية ومادة النقد الأدبي .. عــاش مــستمتعاً برحابة الجو الجامعي ومتأزماً بضيق الحالــة الماديــة فالكتــب الجامعية ليست بالمجان .. من أول العام الدراسي وهو يرتــدي طاقم ملابس لا يغيره .. ضاقت به السبل .. أحد زملائه أعطي له عنوان رابطة تساعد أبناء بورسعيد المهجــرين .. تــردد في بادئ الأمر ولكن تحت وطأة الحاجة .. اقتربت أقدامه من حي الشاطبي .. اخترق شارع الترام ودلف في شارع ضيق لمــح في منتصفه لافتة سوداء خط فيها بالمداد الأبيض "رابطــة أبنــاء مهجري بورسعيد"

يتذكر عندما وطأت قدماه مقر الرابطة تمادى إلى سمعه لهجة أبناء بورسعيد المميزة .. اشتم رائحتها في لوحــات مراكــب الصيد المعلقة في البهو الذي تفترشه عدة صالونات وتــشرف عليه أربع حجرات ثلاث منها مفتوحة على مصراعيها وضعت فيها مائدة تنس طاولة وأخرى للبلياردو ومكتبان لاثنين مــن الموظفين أما الحجرة الرابعة كانت مغلقة خط على بابها "مدير الرابطة".

اقترب يوسف من أحد الموظفين .. أخبره بأنه يريد الاشتراك في الرابطة مبرزاً له إثبات شخصيته .. تناولها الرجل بعد أن طلب منه الجلوس .. وقع يوسف علي طلب اشتراك وبصوت منخفض متردد قال :

- إني أحتاج معونة لشراء الكتب الجامعية

نظر الرجل إليه مبتسماً قائلاً :

- دقائق .. وسوف تقابل اللورد

فكر يوسف برهة في الاسم .. تذكر أنه تردد على مسامعه من قبل في الجامعة .. لقد سمع من زميله عدة حكايات عنه .. اللورد – كما يلقبونه – اسمه الحقيقي أنور أبوصير بورسعيدي الأصل يعيش في الإسكندرية ويعمل كمدير عام لإحدى شركات القطاع العام الكبرى وهو من أنشأ الرابطة مع بعض رجالات بورسعيد الميسورين وأخذ على عاتقه مساعدة أبناء بلدته المهجَرين إما بإرسالهم للعمل بالخارج أو بمساندتهم في استكمال دراستهم ومساعدة أسرهم .. كان بمثابة الأب الروحي ليس فقط لأبناء مدينته بل لأبناء المدن الأخرى المغتربين بالإسكندرية.

عندما دخل يوسف مكتب اللورد المؤثث ببساطه لكنه ينم عن ذوق رفيع .. رأى أمامه رجل في منتصف العقد

الرابع صورة طبق الأصل من ممثله المفضل همفري بوجارت .. السمت .. الأناقة .. الابتسامة الوقور .. الاختلاف الوحيد شارب كلارك جيبل الذي يعتلي فمه .. يداعب بين أصابعه سيجارا غير مشتعل .. دعاه للجلوس .. سأله عن حاله.. حكى له يوسف .. طمأنه بأن أحواله ستتحسن .. أمر الموظف بصرف معونة له فوراً .. في هذه اللحظة دخل شاب قليل الحجم ذو ملامح سمراء .. ابتسم اللورد موجهاً الكلام إليه:

- جئت في وقتك .. يوسف مراد كلية الآداب

ثم وجه كلامه إلي يوسف :

- خالد صبري كلية الطب

أخذ اللورد نفسا من سيجاره المطفأ ثم خاطب خالد قائلاً :

- اصطحب يوسف واذهب فوراً لمحل الحاج مصطفي خليل وتخير له طاقم ملابس أنيق يليق بطالب جامعي.

أراد يوسف التملص .. لكن خالد أخبره بأن اللورد إذا أمر يجب أن يطاع .. رغم أن خالد إسكندرانياً إلا أن اللورد كان يمد له العون ولاسيما أنه من المتفوقين دراسياً وفي المقابل كان خالد لا يتواني في خدمة اللورد وتحقيق كل رغباته النهارية ونزواته الليلية فهو رجل أعزب يعيش حياته حراً طليقاً.

كانت الرابطة تشارك في أنشطة ثقافية متعددة بفضل علاقات اللورد المتشعبة كإقامة الحفلات الموسيقية بقصر ثقافة الأنفوشي لفرق السمسمية بأغانيها النابعة من وجدان أبناء القنال مثل مركبنا المهاجرة وأنا صياد وحزانى يا بلدي تلك الأغنية التي انبثقت إثر حادث أتوبيس رأس البر الذي كان يقل الطلاب المهجرين من أبناء بورسعيد إلى جامعاتهم وغرق بهم في الرياح التوفيقي .. وكان من ضمن الغرقى شقيقة هشام صديق يوسف الذي هاجر إلي رأس البر.

يفيق يوسف من اجترار ذكرياته على صوت بائع جائل .. يعاود السير في اتجاه فندقه .. يعاوده حنين الأيام .. يرن في أذنيه صوت المذياع معلناً بيان العبور في مكتب اللورد .. سرت قشعريرة في أبدانهم .. أخذوا يتراقصون فرحين مهللين "الله أكبر" قال أحدهم :

- عملها السادات

تحولت الرابطة إلى خلية نحل .. الكل فرح مسرور غير مصدق لما حدث والبعض متخوف وقلق من أن يكون ما يسمعه مجرد فبركة من صنع تلاميذ أحمد سعيد فما زالت أصداء النكسة تعشش في نفوس المصريين.

بعد عدة أسابيع شكل اللورد فريق عمل من الموظفين وبعض الطلاب للرد على استفسارات المهجرين الذين كانوا متلهفين للعودة إلى بورسعيد فكان فريق العمل يراجع تصاريحهم ويطمئن على حال منازلهم ممن استبقوا في بورسعيد.

وبحلول نهاية سنة ١٩٧٤ عاد معظم المهجَرين إلى مدينتهم الباسلة ساعد في ذلك القرار الذي اتخذه السادات بإلغاء تصاريح دخول بورسعيد.

قرر يوسف وأمه عدم الرجوع لانهيار منزلهم ولعدم وجود أقارب لهم هناك .. قالت له أمه :

- بلدنا مصر يا يوسف سواء عشنا هنا أو هناك .

قل نشاط الرابطة بعد رجوع معظم المهجَرين وأصبح نشاطها قاصراً على مساعدة من بقي من أمثال يوسف أو ممن يريد أن يسافر للعمل بالخارج.

اقتربت أقدام يوسف من المنزل الذي كان يقطنه بحي الأزاريطة وقف متأملاً الشرفة التي قضي فيها أحلى الأمسيات مع أمه التي كان ملتصقاً بها .. نادراً ما كان يخرج مع أصدقائه .. لذلك عندما فقد والدته شعر بفقدان شاطئه في هذا العالم المتلاطم .. ابتلعته أمواج الاكتئاب .. التف حوله أصدقاؤه ..

أحاطوه بالحب والرعاية حتي لملم مشاعره المنثـورة واسـترد كيانه.

سار يوسف مرة أخرى مستمتعاً بجو الكورنيش الساحر .. تذكر يوم كان يحتسي كوباً من الشاي علـى أحـد مقـاهي الشاطبي .. تمادى إلي سمعه إعلان السادات بأنه على اسـتعداد للذهاب إلى إسرائيل نفسها من أجل إقرار السلام.

انفجر رواد المقهى ما بين فرح وغاضب .. بعضهم أصـابه الذهول .. أسرع يوسف إلى الرابطة وجدها تموج في حلقات من النقاش أحدهم يقول بحدة :

- باع القضية الخائن.

آخر يرد بهستيرية :

- هدم الناصرية وباع بلده لليهود.

يتدخل اللورد في الحوار بهدوء وعقلانية قائلاً :

- يا جماعة الهدوء من فضلكم .. مش يمكن الـسلام هـو الشيء الوحيد اللي ممكن يحل القضية كلها ولا انتم عـاجبكم الحروب والتشريد .. والتخلف اللي احنا فيه .

اندهش يوسف من أسلوب اللورد في الحديث وتساءل أين ذهبت الآراء الثورية والحدة في طرحها .. ربما غـيره الـزواج بعدما وجد من تقنعه بالاستقرار وتكوين عائلة.

رمق اللورد يوسف .. أشار له أن يتبعه إلى مكتبه باغته مبتسماً :

- مبروك

- على إيه يا فندم ؟

- تذهب الآن تحضر حقيبتك وعلى القاهرة فوراً .. أنت الآن صحفي في أكبر صحيفة في مصر كلها.

يقفز يوسف فرحاً معانقاً اللورد .. قبله على جبينه وفي رأسه قهقه اللورد ضاحكاً :

- أعذرني أنا لا أعرف كيف أشكر حضرتك

- تشكرني بأنك تنجح يا يوسف

أبلى يوسف بلاءاً حسناً ففي أقل من عقد أصبح ناقداً أدبياً مرموقاً يراسل عدة صحف ومجلات عربية يحاضر في الكثير من الندوات والمؤتمرات الأدبية و في هذه السنوات اغتيل السادات في ذكرى نصر أكتوبر وسط جيشه بأيدي جنوده .. اصطبغ الجناة باللون الديني .. قال المحللون بأن السادات ساعد على تقوية الجماعات السلفية حتى تقف أمام الهيمنة الشيوعية التي تركها سلفه لكن استفحل خطرها وصارت وحشاً التهمه في النهاية .

تساءل يوسف في حيرة :

" الغريب أنه عندما اغتيل السادات لم يتأثر معظم الشعب بقتله على الرغم من نجاح هذا الرجل في تحقيق النصر وتحرير الأرض سواء بالحرب أو السلام .. بينما حين مات سلفه أتذكر أن أبي عاد مهموماً حزيناً كأنه فقد والديه .. خرجت جموع غفيرة من الشعب من كافة المدن لتلتقي في جنازة مهيبة يعلو فيها صوت النحيب والعويل على الرغم مما اقترفه الزعيم من أخطاء إلا إنهم نصبوه رسولاً للحرية والاستقلال .. يا لها من دراسة تحتاج إلى باحثين في تاريخ الشعوب"

شهدت السنوات التالية مواجهات عديدة بين الحكومة وتلك الجماعات السلفية .. كما أغلقت الرابطة أبوابها لانقضاء عامل وجودها فلم يعد هناك مهجرون بل أصبحت بورسعيد بؤرة اهتمام كل من يريد فرصة عمل بعدما تحولت إلى منطقة حرة .. انشغل اللورد بعمله بعدما رقي إلى رئيس قطاع وأصبح عمله يتطلب سفره كثيراً للخارج.

وقف يوسف من جديد لشراء عقد من الفل من أحد الصبية علي الكورنيش .. أخذ يشم رائحته الذكية التي أنعشته وأرجعته إلى أيام القاهرة .. عاش يوسف حياته بلا تجارب عاطفية فعلاقته بالجنس اللطيف كانت لا تتعدى أكثر من

لقاءاته مع زميلاته بالكلية .. ورغم مقابلته للكثير من النساء في عمله إلا أنه لم يجد المرأة التي تأسره وتشبعه وجدانياً قبل أن تشبعه جنسياً .. تنقي شوائبه .. تعبد طريقه .. حتى رأى عائشة مروان المحررة الجديدة في قسم السياسة .. عندما تلاقت أعينهم سحره بريق عينيها .. هذا الكائن ذو البشرة الخمرية الساحرة والوجه الصبوح الذي يشع نوراً .. ذلك الذكاء الفطري المصقل بالثقافة .. تجدها تخرج من ندوة لتدخل مؤتمراً .. تنهي مقالة لتكتب دراسة .. شعلة من النشاط والجمال .. دائماً تتجنب مصافحته ودائماً يبدي لها إعجابه بخمارها الداكن ذو التصميم الراقي .. تبتسم له بمجاملة .. تعلق بها .. بدأ يراقبها .. يتحسس أخبارها .. شعرت بتطفله .. لكنها لم تستاء أو تعترض بل شجعته على التقرب منها .. بادرته مرة قائلةً :

- لم يعجبني رأيك في سافو

اندهش بشدة فلم يكن يتخيل أنها مهتمة بالأدب .. هي التي فطمت على كتابة وقراءة التحليلات السياسية ذات اللغة الجافة المليئة بالحروب والمآسي والمعاهدات تعرف سافو أول شاعرة في تاريخ الإنسانية .. رد متلعثماً :

- آه .. سافو ولماذا لم يعجبك رأيي ؟؟!!

ردت بثقة :

- كان أفلاطون يقول " غبي من يقول أن ربات الشعر تسع فليعلموا أن سافو ابنة مدينة ليسبوس هي الربة العاشرة " ولقد جئت أنت بعد مئات السنين لتعلن بأن سافو كانت لها علاقات شاذة مع تلميذاتها.

- أنا لم أقل هذا الكلام بل التاريخ هو من ألصق بها هذه التهمة حتى أصبحت المثلية النسائية تسمي ليسبانيزم نسبة إلى مدينة سافو ليسبوس

ردت غاضبة :

- افتراء .. لو كان هذا حقيقي لما سمحت العائلات المختلفة لبناتها بالتعليم في مدرسة سافو .. كذلك فإن الفتيات اللواتي كن يتعلمن عند سافو كن يخرجن على بيوت أزواجهن فلو أن المدرسة كانت متهمة بالشذوذ في عصرها لما تزوجت تلميذه واحدة من تلميذاتها:

أراد يوسف أن يخفف من حدة الحديث :

- أنا آسف يا آنسة عائشة .. إعتبري كلامي كله لم يكن عن سافو الشاعرة بل عن سافو مسحوق الغسيل.

ابتسمت عائشة فظهرت أسنانها الناصعة فأزداد وجهها بهاءاً مما شجعه أن يقول :

- ممكن أعتذر عملي وأعزمك على نسكافيه.

- ممكن لكن يا ريت يبقي في هيلتون النيل لأني لازم أغطي هناك ندوة عن الغزو العراقي للكويت.

نظرت إلى يوسف وابتسمت مبتعدة .. تابعها في غبطة .. كانت عائشة تتشابه مع يوسف في إنها لا تجد الشريك المناسب الذي يشاطرها همومها الثقافية بل إنها قاربت على الإقتناع بعدم جدوى الزواج مما رأته من تفاهة وسطحية معظم من تقدموا لخطبتها .. فالرجل لا يعني لها مجرد مشارك في براح مرقدها الشاغر بقدر ما هو مساحة رحبة من الصدق والحب يشتركان في ثوابت لا تقبل القسمة مثل العمل .. القراءة .. التدين .. الطموح .. رجل يتحلى بشجاعة نزع تاج السلطة الذكوري ليرتدي رداء المساواة .. عندما رأت يوسف عرفت من الوهلة الاولى أنه ذلك الرجل الذي ترتجيه وعندما أيقنت إصراره على التقرب منها طارت فرحاً .. لكن إباء ومبادئ الفتاة الملتزمة منعها من إظهار ذلك.

في غضون أسابيع قليلة صارا مخطوبين لا يفترقان رفعت عائشة شعار ممنوع الاقتراب أو التصوير وباءت كل محاولاته بالفشل .. أصبح يحلم بالاقتراب ليشم رائحتها الأنثوية .. ملامسة شفتيه لراحتيها يداعب مخيلته .. في أحد المرات أثناء عبورهما الطريق أوهمها بخطورة الموقف واندفع ممسكاً بكلا

ذراعيها من الخلف شعر بمدي ليونتها .. سرح بعيداً في رغباته المتأججة .. أفاق على غضبها الجامح واتهامها له بأنه لا يهمه غير الجنس وانه إنسان تتحكم فيه غرائزه .. استفزه كلامها مما دفعه ليقول في غضب :

- طالما أنت متدينة لهذه الدرجة لماذا تعملين؟؟ !!

ردت بحدة :

- العمل عبادة للرجل والمرأة وإن كان عمل المرأة حرام ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" أي ما سمح لزوجته بأن تعمل بتدريس أمور الدين للمسلمين.

أراد يوسف أن يخفف من حدة الموقف :

- لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصد عائشة بنت أبي بكر وليست عائشة بنت مروان.

ابتسمت محذرة من السخرية

بصوت يشوبه الحنان يقول :

- عائشة أنا بحبك ومستعد أكتب إقرار بأني رجلك إلى يوم الدين.

ابتسمت وسمحت له بأن يصافح بلا إطالة .. وبعد عـــدة أسابيع حددا موعد الزفاف .. كتبا دعوات الفرح .. قررا عدم إقامة حفل زفاف على أن يسافرا إلى شهر عسل طويل.

توقف يوسف عن سيره .. ارتكن بكلتا يديه علـــى ســـور الكورنيش .. انقطع شريط الـــذكريات .. أخـــذ ينظـــر إلى الأمواج الهادرة المنعكسة على ضوء المـــصباح الـــشاحب .. تخطت إحداها الصخور .. يصيبه رذاذها .. ترجعه ارتعاشـــة جسده إلى وقائع يوم الثاني عشر من أكتوبر عام اثنين وتسعين حيث ارتجت أرض الكنانة بقوة خمسة ونصف درجة بمقيـــاس ريختر .. كانت الشوارع تموج مضطربة .. قوات الأمن في كل مكان .. صليل عربات الإسعاف والإطفاء لا ينقطع .. زحـــام الأرجل المهرولة في رعب .. اتجه مسرعاً إلى الجريدة .. تلقفته العيون مذعورة .. لمح فيها نظرة شفقة .. نفس نظرة المواســـاة التي كانت في أعين جيرانه عندما استقبلوه في مـــوت أبيـــه .. استدعاه رئيس التحرير .. ربت على كتفه في مودة .. أخـــبره بأن منزل عائشة انهار من أثر الزلزال .. صاح في ذعر :

- وأين عائشة ؟

كان الرد كالصاعقة سحقه تحت أنقاض الحقيقة المرة :

- البقاء لله

ماتت عائشة حين لم يكن أحد يفكر في الموت .. ضاعت الأحلام .. تحول فستان الزفاف الأبيض إلى كفن .. تحولت دعوة الزفاف إلي إعلان في صفحة الوفيات .. تحول عش الزوجية إلى مقبرة مظلمة .. التهمته أنياب الاكتئاب .. تقوقع داخل مسكنه .. بذل أصدقاؤه جهداً كبيراً لإخراجه من شرنقته .. بعد عدة أسابيع عاد لعمله .. كل شيء من حوله يذكره بها .. أروقة الجريدة .. المبنى .. الشوارع .. المطاعم .. المسارح .. القاهرة كلها .. بات صعباً عليه أن يمكث .. لم يتردد في قبول عرض إحدى المجلات الخليجية سافر بعيداً .. غرق في العمل لسنوات أخرى ضاعت من عمره بلا عواطف بلا مشاعر في أرض غربة أخذت أكثر مما أعطت.

كانت سلواه في خطابات أصدقائه التي لولاها ما عاد مرة أخرى لمصر .. يوم أن قرر الرجوع قال لنفسه :

"إلي متى الألم؟؟!! فعائشة لن أنساها أبداً .. من ينسى امرأة عندما تقابلها تمنحك متعة قراءة كتاب شيق .. تنظر في عينيها فتري آلاف الموسوعات .. تلامس أناملها فتكتشف أماكن بكراً لم يصلها الرحالة بعد"

يصيبه رذاذ موجة غاشمة أخرى .. تنقطع ذكرياته .. يتلفت حوله زافراً همومه .. مستنشقاً هواء البحر العليل .. تساءل :

"ماذا حدث من دقائق داخل قاعة النـــدوة لقـــد فقـــدت السيطرة علي نفسي .. وقفت أهاجم الرواية وألوم بطلها على وقوعه في حب زوجة صديقه .. بينما أنا واقع في نفس الحب"

جذب انتباهه على الجانب الآخر أنوار محطة الرمل .. تمثال سعد باشا زغلول .. لافتة فندق سيسل تـــومض في بهجـــة .. تذكر ابتسامة لبنى له عند دخوله قاعة الندوة .. كم تمـــنى أن يبحر في عيونها السود .. يلتحف الرموش الوارفة .. ينام بـــين الجفون .. هي وحدها من جعلت قلبه يخفق من جديـــد بعـــد فقدانه عائشة .. يعلم جيداً أنها حماقة .. لكنها حماقـــة تجعلـــه سعيداً .. يعبر الطريق مسرعاً متجهاً نحو مدخل الفندق.

(٢)

عندما رأت لبنى زوجها ينكب على عمله في مكتبه بعد رجوعهما من الندوة .. تمنت ألا يفرغ منه أرادت الانفراد بنفسها .. دخلت حجرتها .. بدلت ثيابها على عجل .. جلست في مقعدها الوثير متأملة تلك السفينة الضائعة وسط الأمواج العاتية .. عندما وضع صديقهم جمال بفرشاته آخر لمسة في هذه اللوحة .. أظهرت إعجابها الشديد بها .. فأهداها لها .. لحظة أن رأتها شعرت بأنها تعبر عن حياتها .. فهي تلك السفينة التائهة التي لا تملك مقدراتها .. فعندما التحقت بكلية الآداب أرادت التخصص في اللغة العربية لولعها بالأدب لكن والدتها أرغمتها على دراسة الفرنسية بحجة أنها فتاة والثقافة الفرنسية تضفي على الفتاة رقياً وسمواً .. وعندما أحبت زميلها في الكلية أرغمها أخوها على الزواج من صديقه خالد .. وبين إرضاء أمها وأخيها تأرجحت حياتها بين ما يريدونه وما تريده حتى أجهضت أحلامها .. عاشت حياة مكبلة بأغلال التقاليد البالية مما أورثها جبن الإفصاح عما تشتهيه أو ترغب فيه .. تشرنقت داخل أحلامها المغتصبة .. حتى رأت يوسف مراد .. خفق قلبها من جديد بعدما أحترق على مواقد الحرمان .. أرادته من النظرة الأولى .. لحظة تلامس

راحتيهما أحست بارتعاش كيانها .. ذاب جسدها في راحتيها الصغيرة .. تاهت عيناها في عينيه العسليتين .. من لحظتها لم تترك ندوة مقامة له أو تجمع من الأصدقاء يتواجد فيه إلا وكانت أول الحضور .. دائماً تغالب خجلها وتتحين الفرص للحديث معه .. شعرت أنه مثلها يعيش خواءً عاطفياً خاصةً بعد أن عرفت مأساته مع عائشة .. عندها أيقنت أنه شاطئ سفينتها الضائعة.

لم تكن لبنى نادمة على هذه المشاعر الآثمة تجاه يوسف فهي لم تعتبر خالد زوجاً في يوم من الأيام .. فمن يعاملها بهذا الجفاء الخالي من أي عاطفة من يمتهن كرامتها كأنثى لا يحق عليها أن تعامله كزوج بل كجلاد .. كم حمدت ربها لعدم إنجابها منه .. بالرغم من إقرار الطب بأنها أرض خصب لزرع أجنة طيبة إلا أن حملها دائماً لا يكتمل .. لم يترعج هو أو يكترث كثيراً .. هذا ما كان يؤكد لها بأنه تزوجها من باب الوجاهة الإجتماعية وليس لحبه لها أو إعجابه بها.

بعد موت أمها وهجرة أخيها إلى كندا .. أظلمت الدنيا في عينيها .. فأمها كانت دائماً تواسيها .. تزرع فيها الصبر بنصائح الأم التي لا تريد أن تصبح ابنتها مطلقة .. رغم أن أخيها كان يرفض الإستماع إلى شكواها إلا أنها هجرته فقدت حائطاً كانت ترتكن إليه.

ثبتت نظرها علي السفينة التائهة قائلة لنفسها :

"ماذا علي أن أفعل ؟ هل أصارحه بما يعتريني من نفـــور أم أحتمل ما أنا فيه من هوان ؟ لقد سئمت معاملتي كدمية يتباهي بها عند اللزوم أو استخدامي كبئر يطفئ فيه جـــذوة شـــهوته الحيوانية بمنتهى القسوة وكأنني مطية بلا مشاعر"

تزاحمت الهواجس في رأسها الجميل .. تثاقلت الهموم علـــى قلبها الضعيف .كم تحتـــاج إلى أذن صـــاغية .. رأي ســـديد يرشدها إلى الطريق .. دمعت عيناها .. تراءت لها صـــديقتها زيزي .. التي دائما ماتستبعدها كطوق نجاه لخوفهـــا مـــن أن تسفه من أسبابها وترتدي ثوب أمها وتعاود غرز شتلات الصبر فيها . لكن لضيق السبل وعدم احتمالها المزيد ممـــا تعانيـــه . كفكفت دموعها و صاحت بصوت يائس :

– نعم زيزى

وقفت .. اقتربت من المرآة لتهندم نفسها .. لم تكن لـــبنى صارخة الجمال ولكنها تملك مقومات المرأة الجذابة .. الوجـــه المريح .. الإبتسامة المشرقة .. الجسد الممشوق .. عندما تراها مرتدية ثيابها الأنيقة .. تستمع إلى حديثها المنمق .. تتابع حركة شعرها المنسدل بلا عوائق .. نظرات عينيها الـــضاحكتين .. حركاتها العفوية الجذابة .. تكتشف أنها نوع من النساء يجعـــل

الغواية ليست في العري بل هي تستميلك رويداً رويداً حتى تأسرك بشباك نعومتها.

شعرت بيد توضع على كتفها .. وصوت زوجها يسألها بنبرة تعرفها جيداً :

- هيا لننام

تلك النبرة الآمرة .. المليئة بالشهوة .. يحتويها بعنف بين ذراعيه .. يلقيها على الفراش .. تغمض عينيها تاركه له جسدها يعربد فيه كما يحلو له .. كم تمنت أن تسمع منه كلمة حب نظرة عشق قبل استباحتها وكأنها فتاة هوى تصيدها من أحد الملاهي الليلية.

تحلم برجل يفك شفرة جسدها .. يجعلها تتهجى المتعة .. فهي لا تعرف الإنهيار من لمسة واحدة .. فمازالت بريئة كبراعم الزهور .. أمية في مدرسة الرغبة فدائماً مايتركها باردة متبلدة في الفراش بعد أن ينال منها وطره.

***

كرّس د.خالد كل وقته وجهده لمستشفاه حتى جعلها من أنجح مستشفيات الإسكندرية .. ساعده على ذلك شهرته كجراح ماهر ومعه نخبة من أكفأ الأطباء .. ناهيك عن الحكيمات والممرضات اللاتي ينتقيهن بدقة متناهية .. ولقد

توج نجاحه بإبرامه عقداً مع إحدى شركات السياحة لمشاركة مستشفاه ضمن مهرجان السياحة العلاجية حيث يجري السائحون الفحوص الطبية اللازمة والاستجمام بمستشفاه.

رغم نشأة خالد البسيطة إلا أنه كان طموحاً .. كونه طالباً متفوقاً وعضو اتحاد الطلبه بكليته أتاح له التعرف على الكثير من الشخصيات المرموقة سواء في الجامعة أو خارجها من أمثال اللورد. وبما يتحلى به من موهبة غير قليلة في فن الرياء استطاع أن يطوع علاقاته لفتح الأبواب الموصدة أمامه .. فبعد تخرجه قضى فترة تكليفه كطبيب امتياز في الإسكندرية ولم يسافر إلى صعيد مصر كباقي أقرانه .. ثم عمل في كبرى المستشفيات لعدة سنوات وذاع صيته كجراح كفء وبشيء من السعي لدى معارفه استطاع أن يحصل على عقد في الخليج.. ليرجع بعد عدة سنوات لينشئ مستشفاه الخاص ويعضد مصالحه بالالتحاق بعضوية الحزب الحاكم ويشرع في الزواج من إحدى فتيات العائلات العريقة كما كان يحلم ولم يدم بحثه طويلاً فلقد وجد مبتغاه في أخت صديقه لطفي ذلك الصديق الذي طالما تمنى أن يحيا حياته .. فهو من سلالة باشاوات .. والده وكيل وزارة سابق .. يعيش بشقة فاخرة بحي رشدي .. يمتلك سيارة منذ أن كان طالباً .. عضواً بنادي سبورتنج .. نعم وجد مبتغاه في لبنى .. تلك الفتاة الرقيقة الحالمة كانت هي الباب الملكي للولوج إلى صفوة المجتمع بتاريخ أسرتها العريق.

لكنه بعد عدة سنوات من الزواج وبعدما أضفت لبنى على حياته الرونق الإجتماعي الذي كان ينـشده طـوال حياتـه اكتشف إنها ليست المرأة التي تشبع احتياجاته الذكورية .. فهو يتمتع بفحولة تكفي أكثر من امرأة .. ولـبنى دائمـة الـصد والاشمئزاز من رغباته .. إنه يحتاج لامرأة مثل ثمرة المانجو تسيل لعابه .. يلتهمها بنهم .. لا تفاحة يتناولهـا طبقـاً لقواعـد الإتيكيت.

ساعد الصد المتكرر من لبنى لرغباته إلى ازدرائها .. أصـبح عمله شغله الشاغل .. فمعظم وقته يقضيه في مستشفاه ما بين متابعة المرضى .. إجراء الجراحات .. قراءة الدوريات العلمية.. حتى قيلولته يغفوها بغرفته الملحقة بمكتبه .. لا يذهب إلى البيت إلا في الساعات المتأخرة من الليل .. إما لإغماض الجفون حتى الصباح أو لإخماد شهوته بأسلوب روتيني مع جثة هامدة.

يقرأ في عينيها دائماً تململها من وقت فراغها الفسيح ومـن إهماله لها .. لذا كان يرضخ في بعض الأوقات ويصطحبها للقاء الأصدقاء مثل ندوة يوسف مراد.. باتت لبنى حملاً ثقيلاً ينغص عليه حياته .. أقدم أكثر من مرة على طلاقها لكن دائمـاً مـا يحجم خوفاً على اهتزاز مركزه الاجتماعي والسياسي.

أدى اتساع فجوة الجفاء بينهما إلى أنه أصـبح مـسكوناً بخيالات تلك الأنثى التي تأسره .. تـشبعه .. باتـت تلـك الخيالات تطارده ليل نهار .. تتراءى في المرضى .. الممرضات..

الطبيبات .. صار كالمراهقين تعصف به تداويرهن .. صدورهن..شفاههن الممتلئة .. أصواتهن الناعمة .. لمسات أناملهن عند السلام.

هذا الصباح بالمستشفى فوجيء بدخول أستاذه د.حسين عارف طالباً منه أن يلحق إحدى خريجات مدرسة التمريض بمستشفاه .. أفاض الرجل في خصالها الطيبة وبأنها ينطبق عليها شروط المستشفى من كفاءة وجمال .. ولما كان د.حسين صاحب أفضال كثيرة على خالد انصاع لطلبه علي الفور.

دخلت الفتاة .. تسمرت عينا خالد عليها .. أيقظت نوازعه المكبوتة .. تحققت خيالاته .. إنها هي.. نفس السمت الذي يتراءى له .. العينان العسليتان الجريئتان .. الشفاه الغليظة.. الشعر الأسود المموج .. الصدر الثائر على أزرار القميص الضيق .. الخصر الدقيق .. احتوى راحتها في كفه مستمتعاً بدفء أناملها اللينة :

- أهلاً يا دكتور

رحل بعيداً مع صوتها الناعس المليء بالأنوثة الطاغية .. أرجعه صوت د. حسين :

- سناء يا د.خالد

– آه .. أهلاً .. د.حسين بيشكر فيك

– إن شاء الله أكون عند حسن ظن حضرتك

قالتها وهي ترمقه بنظرة أشعلت فحولته المتأججة .. ضغط على زر .. دخلت إحدى الموظفات .. وجه كلامه لها :

– هناء .. لو سمحت خذي الآنسة سناء لشئون العاملين لإتمام إجراءات التعيين

خرجت سناء .. نظر خالد إلى أردافها الممتلئة دون إسراف.. والساقين الملفوفتين بعناية نحات قدير .. تناول منديل ورق وأخذ يجفف عرقه .. ودع د.حسين .. استلقى على مقعده الجلدي .. تاركاً لخيالاته العنان.

***

عزمت لبنى على زيارة زيزي .. نزلت إلى الشارع .. الشمس المشرقة جعلتها تقرر أن تسير على قدميها .. فالمسافة قصيرة من بيتها إلى فيلا صديقتها في كفر عبده ذلك الحي الراقي الهادئ الذي فقد الكثير من رقيه بعد الإنفتاح بتحول معظم قصوره إلى أبراج يسكنها باشاوات العصر الحديث.

على الرغم من أنها قررت الإفصاح عن همومها إلا أنها مازالت متخوفة من رد فعل زيزي . هل ستقف بجوارها أم يستمر موال تطييب الخاطر .

دلفت إلى شارع جانبي .. احتضنتها الأشجار الوارفة على جانبي الطريق .. زقزقة العصافير على الأغصان .. أعاد لها هدوءها النفسي .. اقتربت خطواتها من باب الفيلا .. توقفت مترددة .. استجمعت شجاعتها .. ضغطت الزر .. فتح الخادم.. أدخلها إلى أحد الصالونات الأوبيسون صرعة لويس العاشر .. هبط زيزي درجات السلم في أبهى صورها .. رغم أنها في منتصف العقد الخامس إلا أنها مازالت تحتفظ برشاقة قوامها .. نضارة بشرتها .. وجهها المشرق الخالي من التجاعيد.. فمن يراها يتصور أنها مازالت تتراقص على أوتار العقد الرابع .. ربما يرجع ذلك لحياتها المريحة خاصة بعد رحيل زوجها الذي ترك لها ثروة لا بأس بها .. منها هذه الفيلا ومدرسة خاصة تديرها بنفسها .. احتوت لبنى في حضنها وقبلتها قائلة :

– أهلاً لبنى .. أين أنت؟

جلستا .. أخذت زيزي تحكي لها عن المدرسة ومشاكلها فجأة سكتت .. نظرت إلى لبنى قائلة:

– لبنى ماذا بك؟ وجهك شاحب .. أنت مريضة؟

ارتبكت لبنى .. فترددها أصبح يفور صارخاً تارةً أفصحي وتارةً أخرى اكبتي .. في حركة لا إرادية هبت واقفة .. اتجهت إلى الباب قائلة بصوت متهدج بالدموع :

– أنا بخير .. لكن يجب أن أذهب الآن

جرت زيزي نحوها .. نظرت إلى وجهها الباكي قائلة باستغراب .

– لبنى .. ماذا بك؟

أجهشت بالبكاء .. حينها انهارت سدودها لتغمرها فيضانات الإفصاح .. احتضنتها زيزي .. هدأت من لواعج نفسها .. انطلق لسانها يحكي بلا توقف .. استمعت زيزي باندهاش ظاهر .. فهي لم تكن تتصور أن خالد هذا الإنسان حلو اللسان يعامل هذا المخلوق الضعيف بهذه القسوة .. نظرت للبنى بعين حنون قائلة :

– لبنى .. أرجوك أنا لا أحب أن تكوني ضعيفة هكذا .. يجب أن تعرفي أنه لا يوجد أحد يمكنه أن يجبرك على شيء لا تحبيه.

توقفت قليلاً وهي تهندم لها شعرها .. استرسلت قائلة وهي تنظر لعينيها :

– يجب أن تصارحيه بأنك لا ترغبين في الاستمرار معه .. أنا يمكنني محادثته لكني أريدك أن تواجهيه أنت لتثبتي لنفسك بأنك قوية تمتلكين مقدراتك بيدك.

استكانت لبنى لكلام زيزي مما جعلها تستحث ما بداخلها من بقايا الثقة بالنفس وأيقنت أن حل المشكلة في يدها وحدها.

***

لم تكن سناء تحلم بأكثر من هـــذا .. ممرضـــة محترمـــة في مستشفي كبير بمرتب مجزي .. أخيراً ستعمل في مجال تعليمهـــا الذي كافحت كثيراً حتى حصلت علي مؤهله .. أخيراً سوف تعتزل الخدمة في المحلات .. تذكرت نظرة د.خالـــد الحبلـــى بالرغبة .. هذه النظرة تعرفها جيداً .. تحمـــل نفـــس بريـــق الاشتهاء الذي يلمع في عين كل صاحب عمل خدمت عنده.. لكنها اعتادت عليها وتعرف كيف تطوعها لمصلحتها.

بعد اعتماد أوراق تعيينها .. اصطحبتها إحدى الحكيمـــات وسلمتها زيها الخاص بالمستشفي .. ابتـــسمت ســـناء وهـــي تحتضنه في سعادة بالغة.

(٣)

تقلب جمال رمزي في سريره محاولاً نفض النعاس عن بدنه.. نظر في ساعة الحائط وجدها تشير إلى السابعة مساءاً .. قفز من سريره .. وقف في منتصف الغرفة مؤدياً عدة حركات رياضية.. دخل الحمام .. أخذ دشاً ساخناً .. حلق ذقنه .. وقف أمام المرآة عارياً متأملاً جسده الذي بدأ يترهل .. خصلات الشعر الأبيض المنتشرة في رأسه .. نظر إلى وجهه الذي بدأت تحتله رتوش زمنيه ناعمة .. تحسسها بكلتا يديه .. خمسة وأربعون عاماً ليست حافلة بالانجازات .. فلا هو يوسف مراد الناقد المشهور ولا خالد صبري الطبيب الناجح .. لكنه ليس بالفنان الفاشل أيضاً .. بل على العكس فلوحاته تباع بآلاف الجنيهات لكنه كسول يعمل لمجرد أن يدخر ما يتيح له الترحال إلى فلورنسا .. روما .. فيينا .. باريس .. ليتعرف على الجديد في عالم الفن التشكيلي ويشبع وجدانه وكيانه بزيارة المتاحف والمعارض .. وعندما تنفد نقوده يعود أدراجه.

حاولت أخته كثيراً أن تثنيه عما يفعل .. عرضت عليه عدة وظائف في وكالات دعاية .. أغرته بأن تقيم له معرضا دائما لأعماله .. لكنه كان دائم الرفض مفضلاً حياة الحرية بين

مرسمه وسفرياته .. أصرت أخته على أن تحتفل بعيد ميلاده هذا العام .. رفض في بادئ الأمر ثم انصاع بعدما أخبرته أنها دعت أصدقاءهم المقربين .. وها هو يستعد لهذه الاحتفالية.

تنهد زافراً أنفاسه لتشكل ضباباً كثيفاً على سطح المرآة مسحه بكفه ناظراً إلى وجهه من جديد هامساً :

ـ لكني مازلت حراً طليقاً

سمع طرقاً على باب حجرته وصوت أخته :

ـ أسرع .. المدعوون قاربوا على الوصول

ـ سأنزل حالاً

قالها وخرج مسرعاً من الحمام .. ارتدى ملابسه على عجل.. بينما اتجهت أخته إلى المطبخ لتطمئن على تحضير الطعام .. توقفت أمام صورة معلقة على الحائط لأخيها .. نظرت لها بعيون يملؤها الحب .. تعتبر زيزي جمال بمثابة ابن لها.. فهي التي أصرت على أن يعيش معها .. أعدت له بدروم الفيلا كمرسم وهيأت له جناحا بالطابق العلوي ليعيش فيه .. تحيا أسعد أيامها وهو بقربها .. وعندما يسافر تسيطر عليها آلاف الهواجس بأنه لن يعود .. تحلم أن تراه متزوجاً .. تلعب مع أولاده .. تربيهم طبقاً لأفكارها التربوية .. فشلت في إقناعه

بالزواج .. إصراره على العزوبية جعلها تتصور أنــه مثلــي .. صارحته في إحدى الأمسيات .. كاد يموت ضحكاً .. طمأنها بأنه ليس مثلي بل ضدي .. مدت يدها لتعــدل مــن وضــع الصورة على الحائط .. ثم سارت في طريقها.

بدأ المدعوون يتوافدون .. كان أولهم وصولاً لبنى وخالد .. استقبلتهم زيزى باسمة :

- أهلاً يا جماعة

احتضنتها لبنى هامسة في أذنها :

- أريدك ضروري

يتجهان إلى المطبخ .. بينما جلس خالد .. بدا الاضــطراب على لبنى .. نظرت زيزي في عينيها الحزينتين وتنهدت قائلة :

- أرى أنك لم تخبريه

- لم أستطع

- إذن أنت تريدين أن يستمر الوضع

- طبعاً لا

- صارحيه إذن ولا تخش شيئاً

- أخاف أن يرفض

- لحظتها نعرف موقفه ونتصرف علي أساسه .. لبنى يجب أن تتحلى بالشجاعة

ربتت على كتفها في حنان واسترسلت :

- ثقي بنفسك .. والآن هيا نعود لخالد حتى لا يقلق

قالتها وخرجت مسرعة إلى بهو الفيلا لتجد يوسف مراد قد وصل .. صاحت فيه :

- يوسف .. أخيراً وصلت

صافح الجميع في حرارة .. اقتربت لبنى .. تلاقت عيناهما .. تصافحا .. احتضنت الراحات الراحات .. ضغط علي كفها في رقة .. اجتاح جسدها تيار من النشوة .. خافت أن تفضحها عيناها اللتان تتلألآن عشقاً .. سحبت أناملها ببطء تاركة آثار الخدر في كف يوسف الذي أطبقه خوفاً من ضياع أثره .. يخرجه صوت خالد من نشوته :

- أين أنت يا يوسف؟

- العمل لا يرحم

- آه .. العريس وصل

كان صوت زيزي يزف أخاها وهو يهبط درجات السلم في حلة سوداء أنيقة .. تهافتت الأذرع بالاحتضان .. انطلقت

الألسنة بالتهاني .. الكل يقدم هداياه .. فـتح بـاب علـى مصراعيه لتظهر مائدة عامرة بأطيب المأكولات .. يلتف الكل حول كعكة عيد الميلاد .. يطفئ جمال شموعه .. ينهمكون في تناول الطعام .. تدعوهم زيزي للتوجه إلى إحدى الـصالونات لتناول الشاي .. يجلسون في دائرة .. يحاول يوسف التقليل من نظراته المتأملة للبنى وتحويلها إلى نظرات عميقة عابرة حـتى لا يلفت الانتباه.

توجه مخاطباً زيزي :

- أين دراساتك القيمة يا زيزي هانم؟

- المدرسة يا يوسف تلتهم كل وقتي .. لكني حاليا أعـد دراسة عن الفلاسفة الإغريق

- عظيم .. لعلمك رئيس التحرير سألني أكثر من مرة عن شغلك

- معقول يا يوسف أنت تبالغ .. أنا باحثة متواضعة جداً

تتداخل لبنى في الحوار قائلة :

- دايماً زيزي تقلل من شأنها مع أنها باحثة مهمة فعلاً

يوجه يوسف كلامه للبنى فرحاً بتلك الفرصـة الـشرعية لإلتهامها بنظراته المتشوقة قائلاً :

– زيزي لديها حس الباحث الذي يصل إلى نقاط لم تطرق من قبل .. مثلاً في دراستها عن القرامطة تناولتها بطريقة مغايرة عمن سبقها فهي لم تعتمد علي المؤرخين الــذين يعيــشون في كنف الدولة العباسية أو الفاطمية فقط بل أخذت عن مؤرخي القرامطة أنفسهم

قاطعته زيزي قائلة :

– دولة عاشت أكثر من مائتي عام يجب أن نعطيها حقهــا من الدراسة والبحث

كان خالد أثناء الحوار الدائر لا يهتم ولا يصغي لما يقــال فعقله محتل بتلك الفتاة التي غزت عرينه وفرضت نفسها علــى حواسه بأكملها .. بدأ يفكر في سبل رؤيتها .. يجب أن يجــد طريقة ليقترب منها بصفة دائمة .. يخرجه من تأملاته صــوت جمال المتحمس قائلاً :

– الملفت للنظر أن هناك الكثير من النساء قد اعتلين عرش الأمم عبر تاريخ الإنسانية مثل بلقيس .. كليوباترا .. شــجر الدر وغيرهن ولكن لم نسمع عن فيلسوفة واحدة من النــساء ظهرت عبر التاريخ

ردت زيزي معترضة :

– اختلف معك يا جمال ومن لا يعرف هيباتيا

رد يوسف بثقة :

– نعم هيباتيا ابنة الإسكندرية الفيلسوفة متعددة المواهب .. فهي كانت رياضية وفلكية .. وقفت نفس موقف سقراط الديمقراطي فتميزت محاضراتها بالروح النقدية الجريئة فشعر أسقف الإسكندرية بخطورتها بعد ازدياد معجبيها فأتهمها بالزندقة والفجور فأختطفها الرهبان وسحلوها في شوارع الإسكندرية حتى الموت

تكمل زيزي الحديث قائلة :

– دخلت اللعبة السياسية مثل سقراط .. فرجال السلطة لا يسمحون لأحد من المفكرين بأن يعلو بفكره فوق الصراعات ويصير مصلحاً اجتماعياً وإن سمحوا فإنهم يحولونه إلى آداه لتحقيق أغراضهم .. وإذا رفض يتخلصون منه

يتدخل جمال في الحديث قائلاً :

– أتصور بذلك أن الرجل والمرأة تعادلا في كافة النواحي الإنسانية

ينطلق صوت خالد معلناً مشاركته بالحوار لأول مرة :

– ربما يا جمال .. ولكن هناك اختلافات جوهرية في النواحي البيولوجية .. فمثلاً تصل الفتاة إلى سن البلوغ مبكراً

عن الفتى بحوالي ثلاث سنوات .. كذلك تجيد المرأة التعامل مع التوتر لأن جسمها يفرز نسبة أقل من الأدرينالين .. أيضاً هي أقل تعرضاً للإصابة بتصلب الشرايين ويرجع ذلك إلى نسبة الأستروجين الموجودة في جسمها والتي تساعد على طراوة وليونة الأوعية الدموية وتسمح للكبد بالتخلص من الكولسترول

يطرح يوسف سؤالاً قائلاً :

– لكن يا خالد ما هو السبب الطبي لخلط المرأة بين العاطفة والعقل

اعتدل خالد في جلسته قائلاً :

– يرجع ذلك إلى أن القدرات العاطفية واللفظية عند المرأة موجودة معاً نتيجة للاتصال الوثيق بين جانبي المخ .. أما عند الرجل فنجد أن الانفعالات مركزة في الجزء الأيمن من المخ في الوقت الذي ترتكز قدراته الشفهية في الجانب الأيسر لذلك يجد صعوبة في التعبير عن انفعالاته

يتدخل يوسف بصوت ضاحك :

– لا تنسوا أن فيكتور هوجو قال : "ابحث عن المرأة" .. فدائماً هي وراء المصائب

تعترض زيزي :

- أو وراء الأمجاد

يتضاحكون جميعاً .. ينظر يوسف في ساعة يده .. يهب واقفاً وهو يقول :

- ألف مبروك يا جيمي وعقبال عيد الميلاد القادم

- مازالت الساعة الحادية عشرة

قالتها زيزي ووقفت معترضة .. قال خالد :

- أنا أيضاً تأخرت .. يجب أن أذهب للمستشفى

تصافحت الأيدي على أمل اللقاء .. أطبق يوسف على أنامل لبنى اللينة .. شعر بانسياها كسائل رقراق في كفه .. احتضنها بنظراته .. تمنى أن يطبق جفنيه على صورها حتى يحتفظ بها للأبد

- مع السلامة يا يوسف

جاءه صوتها الناعم ليحيله إلى كائن يتحرق للذوبان في كيان محبوبه .. استمر رنين صوتها العذب يشجيه حتى وصل إلى فندقه .

(٤)

اعتاد جمال أن يذهب إلى محطة الرمل على قدميه تاركاً سيارته ليطالع الجديد في عالم الكتب المعروضة بالأكشاك المنتشرة بعرض محطة الترام .. ثم يعرج على شارع سعد زغلول حتى يصل إلى مكتبته المفضلة التي اعتاد أن يبتاع منها ما ينقصه من أدوات الرسم .. وفي رحلة العودة يعرج على محل تريانون ليحتسي قدحاً من القهوة مع قطعة من الجاتوه .. يومها دفع الباب ودلف إلى المحل العتيق بديكوراته وأثاثه وعبقه الخاص الذي يجعلك تتلمس إسكندرية الخمسينات و الستينات. جلس على إحدى الموائد .. اقترب منه النادل متحدثاً إليه بصوت خافت :

– المعتاد يا جمال بك

أومأ جمال برأسه موافقاً .. جال بعينيه في المكان .. تسمر نظره على امرأة تجلس في أحد الأركان .. فستانها القطني ذو اللون السماوي .. شعرها الأصفر .. دخان سيجارتها المنبعث من شفتيها المرسومتين بدقة بالقلم الأحمر .. عينيها الزرقاوتين.. كوب البرتقال .. أشعة الشمس المنعكسة عليها .. كل هذا يحيلها الى نجم متوهج .. تلاقت عيناهما .. توهم أنه رأى ابتسامة تولد من بين هذا الوهج .. ابتسم لمجرد تخيل أن هذا

الملاك يبتسم له .. اعتدلت في جلستها .. بزغ وجهها الفاتن من بين سحب الدخان .. الابتسامة مازالت تزينه .. تساءل جمال "هل يعقل أنها تبتسم لي؟" .. تلفت حوله لم يجد أحداً غيره .. أصابه الذهول عندما قامت بقوامها السمهري واقتربت منه قائلة بلكنة أجنبية :

– أهلاً أستاذ جمال

أجاب في دهشة وهو يقف :

– أهلاً يا فندم .. حضرتك تعرفيني؟؟!!

– طبعاً .. وأعرف رسوماتك .. أنا ماريا استابوليس مسئولة العلاقات العامة في المجلس الثقافي البريطاني

– آه أنا آسف .. أهلاً .. أهلاً .. حضرتك ذاكرتك قوية.. معرض رسوماتي كان من حوالي سنتين

– لوحاتك لا تنسى يا أستاذ جمال

– شكراً لك

غاص الاثنان في حوار طويل .. حكت له أنها سكندرية من أصول يونانية .. أصبحت وحيدة بعد موت والدها ورحيل أخيها إلي اليونان .. لم تستطع هي أن ترحل بعيداً عن معشوقتها عروس البحر الأبيض .. يشغلها عملها وهواياتها

القراءة واقتناء التحف .. انجـذب جمـال لجمالهـا الهيلـيني الصارخ.. انصهر داخل أفكارها الحرة الطليقة .. فحكي لهـا بدوره عن حياته الطليقة بلا حدود .. عن أختـه زيـزي .. أصدقائه .. رسوماته .. مر الوقت سريعاً رغم مرور سـاعتين على لقائهما .. تبادلا أرقام الهواتف .. افترقا على أمل اللقـاء في أقرب فرصة .. ودعها جمال بنظرة انبهار

***

دلف د.خالد من بوابة المستشفي .. عـرج علـى قـسم الإستقبال .. مسح بنظره المكان .. لم تقع عيناه عليها .. جاءه الطبيب المسئول .. سأله عن أحوال القسم .. ثم نادى الحكيمة استفسر منها عن أحوال الممرضات وهو يسير معها متجهاً نحو المصعد .. بادرها قائلاً :

– إيه أخبار البنت الجديدة؟

– مجتهدة يا فندم

وصل إلى المصعد .. ضغط زر الاستدعاء .. انفتح الباب .. هم بالدخول .. تلفت لها متسائلاً :

– هل تصلح لتحمل المسئولية؟

– ممكن يا فندم لأنها ملتزمة في مواعيدها وتنفذ ما يطلـب منها بدقة

- عظيم

قالها ودخل المصعد بخطوات واثبة تنم عن مدى سعادته .. دلف إلى مكتبه .. استدعى نائبه .. استفسر منه عـــن حـــال المستشفي ثم قال له :

- اسمع يا دكتور عادل أنا قررت أن أكون فريق يساعدني في متابعة الحالات الخاصة بي وممكن الغرفة المغلقة في نهاية الممر تكون مكتب لهم

- وحضرتك اخترت فريق العمل؟

- حتى الآن اخترت ممرضة .. محتاج كمـــان طبيـــب و ممرض.. المهم يكونوا صغار في السن ومجتهدين حتى أستطيع أن أشكلهم بنفسي

- موجودين يا فندم

- عظيم

في منتصف النهار استدعى د.خالد سناء .. دخلت مكتبه.. رمقها من وراء عدساته الطبية لم يعرها اهتماماً .. انهمك فيما أمامه من أوراق .. بينما دقات قلبه تتقافز فرحة برؤيتـــها .. بدت متألقة في المعطف الأبيض المشدود على الخصر مقـــسماً جسمها إلى مناطق ساحقة .. الكاب الأبيض الحاجب لشعرها

ترك مساحة رحبة تظهر مفاتن وجهها المتوحشة .. خلع عدساته .. نظر لها قائلاً :

- أنا سامع عنك كل خير

- شكراً يا فندم

وقف تاركاً مكتبه .. اقترب منها .. تفحصها ملياً .. ثم نظر إلى عينيها العسليتين قائلاً :

- تحبي تعملي معايا يا سناء؟

- يا فندم ده شرف كبير

- أهم شيء عندى الانضباط في العمل

أومأت برأسها موافقة بينما عجز لسانها عن الرد من فرط السعادة التي غمرتها .. خرجت من مكتبه حائرة لاتعرف أتفرح أكثر بارتقائها فى عملها أم بنظرات د. خالد الحبلى بالرغبة والتمني.

***

رجع هشام إلى بورسعيد هو وأسرته .. وجدها تموج في عاصفة من التغيير بعد تحولها إلى منطقة حرة .. المدينة التي فطمت قبل الهجرة على أنشطة الصيد وسياحة الترانزيت غرقوا في الاستيراد وتجارة السلع الاستهلاكية بأنواعها المختلفة ..

لاحظ هشام أن أمواج التغيير الهادرة انبلجت عنها ثقافة حياتية جديدة لمجتمع لم يفق من نشوة النصر والعودة فأصبح أهل المدينة ومن نزحوا إليها ينغمسون رويداً رويداً في بحر التجارة المتلاطم .. حتى خريجو الجامعات وموظفو الحكومة أصبحوا يمتلكون أو يعملون على ما يعرف بالفرش (عبارة عن عدة كراتين أو شماعات توضع عليها البضائع في شارع التجاري السوق الرئيسي بالمدينة) أما متسكعو الحارات فلقد تلقفهم تجار الظل وشكلوا منهم مافيا لتهريب البضائع عبر المنافذ الجمركية .. حتى أصحاب المهن الحرة كالحلاق والمكوجي والترزي وغيرهم غمرهم الموج العالي وأصبحوا ما بين عشية وضحاها تجارا .. مما أدى إلى انقراض هذه الأنشطة .. وفي المساء يتوجه معظمهم إلى المقاهي والملاهي .. أنبتت المنطقة الحرة طبقة شيطانية بلا جذور غير مثقفة بل في الأغلب غير متعلمة .. تمتلك الأموال ولا تمتلك القدرة على التخطيط لأعمالها أو لمدينتها .

كان هم هشام الأكبر عند رجوعه أن يجد عملاً سريعاً لدعم موقف عائلته المادي .. عمل كبائع في إحدى محال الملابس الجاهزة بحي الإفرنج مع مداومة السعي لإيجاد وساطة تمكنه من العمل بشهادته الجامعية .

ثلاث سنوات من السعي حتى استطاع أن يلتحق بأحد البنوك الوطنية .. وفي وقت قصير أثبت كفاءة في وظيفته مما جعله يتنقل بين عدة مراقبات كمراكز العملاء .. الكمبيالات.. الإعتمادات .. وعلى مشارف التسعينيات رقي إلى درجة مراقب ونقل إلى الائتمان .

كان يرى من حوله زملاء الدراسه الذين فضلوا العمل الحر مثل الإستيراد والتخليص الجمركي يرفلون في أرقى الثياب .. يقودون أحدث السيارات .. بينما هو من فضل العمل المصرفي ينتظر الراتب .. الحافز .. إعانة المنطقة الحرة .. ليجابه هذا القليل الكثير من الالتزامات التي تثقل كاهله من إكمال تعليم أخيه وتجهيز أخته للزواج ومصروفات البيت التي لا ترحم .

واكب فيضان التسهيلات الائتمانية التي تمنح بدون دراسة وافية أو استعلام جيد عن العملاء فإدارة الفرع تريد تحقيق المستهدف دون النظر لأي شيء آخر .. ساعد في ذلك توجهات الدولة في التساهل مع المستثمرين .. كل هذا كان يتنافى مع مثاليته .. فكان يرهق نفسه في إعداد الدراسات الائتمانية لطالبي التسهيلات ويكتب رأيه بحيادية تامة وعند تقديمها لرؤسائه يشيدون بها ويهملونها قائلين له :

ـ المهم يا هشام شخصية العميل

في يوم استدعاه المدير .. دخل عليه مكتبه وجده يتـــصفح أحد الملفات .. نظر له قائلاً بحدة :

- ما هذه الدراسة يا أستاذ؟؟!!

- خير يا فندم

- دراسة شركة ماجيك .. رأيك فيها أنها لا تصلح لمنحها التسهيل

قالها ورفع الملف في يده قاذفاً بـــه في غـــضب إلى أقـــصي المكتب

رد هشام بهدوء قائلاً :

- نعم يا فندم .. بعد دراســـة القـــوائم الماليـــة للعميـــل وإخضاعها لمعايير الجدارة الائتمانية وأدوات التحليل المـــالي .. أفرزت النتائج انه لا يستحق منحه التسهيل المقترح

- يا أستاذ ده قصور في وجهة نظرك وقلـــة خـــبرة مـــن حضرتك

يحتد هشام قائلاً في غضب :

- هذه أرقام لا تحتمل التأويل

ينظر له المدير في ضيق قائلاً بصوت يشوبه الغيظ

- اسمع يا أستاذ .. واضح إنك ضعيف في فهم ما تقولـــه الأرقام .. لذا يجب أن تعمل بعض الوقت في مراقبة الحسابات

استشاط هشام غاضباً وقال في انفعال :

– والله الحسابات .. المطبوعات .. إن شا الله البوفيه أنا لن أخالف ضميري

قالها واندفع خارجاً من المكتب صافقاً الباب بشدة وراءه

***

لم تكن ماريا تتوقع اتصال جمال السريع بها .. فلم يمض على لقاءهما العابر سوي أيام قليلة .. جاء صوته عبر الهاتف يزف مدى شوقه لمقابلتها .. أحست هذا في نبرات صوته المحمل باللهفة لرؤيتها .. دعاها للعشاء .. اعتذرت بلطف لشعورها بالإرهاق إثر إصابتها بنزلة برد شديدة .

قال لها في قلق واضح :

– هل أحضر لك طبيباً ؟

ردت في سرور :

– شكراً .. أنا أعرف علاجي

– وما المانع لحضور الطبيب لطمأنتنا ؟

– جمال أرجوك أنا لا أحتاج إلى طبيب بقدر ما أحتاج إلى الراحة .

صمتت برهة ثم ألقت بالمفاجأة :

– اسمع جمال .. أنا سأنتظرك بالبيت غداً الساعة الثانية عشرة ظهراً

لحظتها سمعت نبرات صوته المتلهف ترقص على إيقاع نبضه المضطرب :

– لو تريديني أحضر لك معي إفطاراً أو أي شيء تريديه

قاطعته قائلة :

– لا جمال شكراً .. أم حسن هنا بتعمل كل حاجة .. إلى اللقاء

قفلت ماريا الخط .. خرجت من غرفتها .. فتحت باب الشرفة .. لملمت روبها القرمزي على جسدها .. استنشقت هواء المتوسط العليل .. صديقها الوحيد الذي يفهمها وتفهمه.. دائماً متاح رحب الصدر .. يحفظ السر .. أخذ حديث جمال يدوي في أذنيها .. سعادته لزيارتها .. قلقة عليها إصراره بأن يأتي لها بطبيب

"أنا لا أنكر أنني عرفت الكثير من الرجال .. لكنهم جميعاً كانوا يريدونني محظية لبضعة أيام . خليلة متعة سرعان ما تنسى بظهور أخرى .. لكن جمال شيء آخر مختلف .. إنه نوع من الرجال لم أعرفه من قبل .. فلماذا لا أخوض التجربة ؟؟!!"

ابتسمت .. أومأت للأمواج برأسها في سعادة

***

تعالى صوت تصفيق الحضور للممثلين المنحنين لتحيتهم .. أنزل الستار .. أضيئت الأنوار بدأ الحضور في الانصراف من قاعة مسرح سيد درويش العتيق .. خرج يوسف من القاعة .. وبينما هو على درجات السلم المؤدي إلى مخرج المسرح وجد نفسه وجهاً لوجه أمام لبنى .. ارتبك .. تخطاها دون أن يتكلم.. استدار فجأة إليها ونادى :

– لبنى

وقفت لبنى ورجعت إليه قائلة :

– مساء الخير يا يوسف .. أنا تصورت إنك لم تري

– لا أبداً .. أنا فقط لم أتصور أن أجدك هنا

– ألم أقل لك أنني مجنونة مسرح .. فلن تفوتني مسرحية روميو وجولييت .. لكن المفاجأة بأني أجدك هنا

– وصلت اليوم .. كان لابد أن أشاهد المعالجة الجديدة لروميو وجولييت

وقفا على بوابة المسرح .. سألها :

- سيارتك معك

- لا .. سأستقل إحدى سيارات الأجرة.

نظر إليها في سعادة وتشجع قائلاً :

- هل لديك مانع لو نسير لبعض الوقت

- طبعاً ليس لدي مانع .. وهي فرصة أعـرف رأيـك في المسرحية

سارا علي الرصيف متجهين ناحية شارع صفية زغلول .. كانت لبنى تختلس نظرات جانبية له متمتعة بصحبته .. بينما هو يحتويها بنظرات فاحصة يساعده في ذلك طول قامته عنها.. فيتقدم خطوة محتضناً بعينيه قسمات وجهها الرقيق ويتـأخر خطوة محتوياً قامتها كلها مزهواً بأنه برفقتها علا صوته علـى صوت نوافير السيارات قائلاً :

- شكسبير هو شكسبير .. الجذالة في التعبير .. السهولة في المعنى حتى وإن فلسفه مخرجو التجريبي .

- أفهم من هذا إنك لا تحب المسرح التجريبي

- الحقيقة أنا لا أميل إليه .. لكن لا أنكر أنهـم في بعـض الأحيان يقدمون أفكاراً شيقة جديرة بالإعجاب .. لكن اليوم

لم يعجبني إلغاء المخرج لشخصية وصيفة جولييت فهي واحدة من أعظم إبداعات شكسبير الكوميدية .

وصلا إلى شارع صفية زغلول .. بادرها قائلاً :

- أوقف لك سيارة تقلك من هنا .. أم نكمل حتى شارع سعد زغلول؟

- أنا لم أتعب بعد

ساروا صامتين .. كم يتمنى أن يبوح كل منهما بما يعتريه من مشاعر تجاه الآخر .. لكن دائماً ما تعجز الألسنة عن الإفصاح مكتفين بحديث النظرات الصامت .. قاربا على الوصـــول .. قالت لبنى :

- هل سيظل أل كابيوليت وعائلة مونتيجو رمـــزاً لقتلـــة الحب ؟

- لا .. هم ليسوا رمزاً لقتلة الحب .. بل هم بمثابة العراقيل التي توضع في طريق المحبين

وقف يوسف قائلاً بصوت من يكتوي بنار العشق :

- بوجود مثل هذه العراقيل يقوي الحب ويعيش للأبد

صمت .. وجد نفسه يتأمل بؤبؤ عينيهـــا .. متعبـــداً في قسماتها الهادئة .. تشربت بشرتها حمرة الخجل .. ارتبكـــا .. تلفت حوله صائحاً :

- تاكسي

مدت لبنى يدها له قائلة :

- مع السلامة يا يوسف

احتفظ بيدها في يده قائلاً :

- أنا في منتهى السعادة اليوم لمقابلتك

ابتسمت له وهي تركب السيارة .. وقف متأملاً السيارة وهي تبتعد نازعةً جزءاً منه .. بلع ريقه بصعوبة قائلاً لنفسه :

"هل تعلم كم أكن لها من حب أم أنها تنظر لي كصديق تستمع لأرائه بإعجاب .. كم يريد لساني التحرر والإفصاح لها لكنه ضميري المرصع ببقايا أخلاق كريمة ونفحات دينية يأبى ألا أدنس بوزر النذالة"

بينما جلست هي في السيارة تفرك يديها في توتر هامسةً لنفسها "يقول أنه سعيد لمقابلتي .. سعيد فقط بينما أنا كدت أسقط انفعالاً عندما رأيته الليلة! .. لكني أشعر بحبه في لمسة يده في بريق عينيه لكنه يأبى أن يفصح أو يبوح مما يجعلني أشك في حبه لي"

***

اعتاد د.خالد أن يجري عملياته الجراحية في الصباح الباكر ثم يمر على مرضاه بصحبة فريقه المساعد .. استطاعت سناء أن

تثبت كفاءة في عملها وأصبحت تفهم ما يريده من مجرد النظرة أما هو فكانت سعادته طاغية عندما يقترب منـــها .. يـــشتم رائحة عطرها الرخيص المختلط بعرقها الأنثوي الطاغي .. ينعم بتنوعاتها المثيرة ونظرات عينيها الجريئة التي تبادله الإعجاب .

في هذا اليوم أنهى جولته الصباحية وتوجه إلى مكتبه منهك القوى .. جلس في مقعده الوثير يحتسي كوباً من العـــصير .. طرق الباب .. دخلت سناء .. تهلل وجهه .. بادرتـــه قائلـــة بنعومة :

- أي خدمة يا دكتور ؟

- شكراً يا سناء

- حضرتك نمت بالأمس هنا

- كيف عرفت

- د.حازم أخبرني

- أنا معتاد أنام هنا لما يكون عندي عمليات جراحيـــة في الصباح الباكر

- أكيد غرفة حضرتك محتاجة ترتيب

- خدمة الغرف قاموا بترتيبها

– لكن ممكن تكون ناقصة تنظيم

قالتها و لم تنتظر منه رداً .. بل سـارت تجاههـا بـدلال متراقصة أمامه وكأنها تدعوه لملاقاتها بداخلها .. جرى الدم في عروقه .. أحس بنشوة طاغية تغمره .. لقد سنحت الفرصـة التي يتمناها الانفراد بها .. وهي من هيأتها له .. وقف مجففـاً عرق جبينه .. اتجه نحو الغرفة بخطوات مترددة اقتـرب مـن الباب.. أمسك مقبضه .. سكنت يده عليه .. تردد من جديد لكن اشتياقه لملامستها كان أطغى .. أدار المقـبض بـبطء .. انفرج الباب .. كانت منحنية تلتقط بعـض الأوراق المبعثـرة تشبثت عيونه على تداويرها .. اقترب منها ببطء .. اشـتعلت غرائزه لتحرق ما تبقى من تردده .. اقتـرب أكثـر لامـسها بجسده.. انتفضت مذعورة بصوت غنج :

– دكتور

لم يستطع خالد تمالك أعصابه .. فقـد صـوابه كليـاً .. حاصرها في ركن الغرفة .. لثم بفمه جيدها .. قبـل شـفتيها المكتنزتين .. صاحت بنبرة راغبة :

– لا يا دكتور .. لا

كأنها أطلقت له العنان .. انخلع معطف التمريض .. فكت أزرار البلوزة .. تحسس ملمس جسدها الناعم كالخوخ .. اللين كثمرة التين .. تفوح منه رائحة زهور الربيع .. خلصت نفسها منه بصعوبة بعدما أذاقته حلاوة رحيقها .. عدلت من هندامها وهي تخرج مسرعة من الغرفة .

جلس على حافة سريره .. متعب الأعصاب .. انتظر حتى استكانت غرائزه .. وقف متوجهاً إلى الحمام .. ضرب وجهه بزخات من ماء الصنبور .. اشتم رائحة قميصه .. مازالت رائحتها عالقة به .. ابتسم في سعادة .. شعر لحظتها أنه وجد الربيع الدائم لحياته .

(٥)

جلست سناء في شرفة منزلها الصغيره مستندة بمرفقيها على السور الخشبي تتابع بعينيها ما تتيحه حارتها الضيقة من منظر البحر .. صواري مراكب الصيد المتراصة بطول حي الأنفوشي .. المارة الذين يدلفون إلى الحارة .. يخدشون ذاكرتها.. رأت نفسها طفلة لا تتعدى الخامسة متعلقة بجلباب أمها تتعثر خطواتها .. بينما شقيقتها الصغرى تمسك بيد أبيها.. ضاقت بالأب سبل الحياة في القرية نصحه معارفه بالنزوح إلى الإسكندرية .. عمل فترة كعامل بناء وأنتهي به الأمر بواب مع استثمار جهود بناته في خدمة البيوت .. لم تكن حياة سناء سهلة .. وأدت طفولتها في خدمة البيوت .. لكنها كانت تصر على استكمال تعليمها ولكفاءتها في العمل كان أربابها لا يمانعون .. أكسبها العمل جلداً ودهاء للوصول إلى غايتها .. عندما حصلت على الشهادة الإعدادية وجدت من ينصحها بأن تتجه إلى دراسة التمريض .. رحب الأب بالفكرة .. فبعد عدة سنوات ستدر عليه المزيد من المال .. عندما سواها مبدع الفتيات .. رفضت العمل في خدمة البيوت .. وجد لها أبوها عملاً في إحدى محلات الملابس الجاهزة بالمنشية .. برغم مضايقات صاحب العمل إلا أنها استطاعت أن تستفيد من

ذلك .. فسمح لها بالمذاكرة في أوقات العمل مقابـــل بـــضعة قبلات وإلتصاقات لا تضيرها .

في يوم جاءت خالتها من المنيا وفي صحبتها ولدها حامد .. أسمر البشرة .. قصير القامة نحيف .. حاصل على دبلوم تجارة ويبحث عن عمل .. تقدم لخطبتها .. أحست سناء لحظتها بأن الدنيا أظلمت في وجهها .. ضاعت أحلامها في الخلاص مـــن دنياها السائدة .. رفضت بإصرار .. لكن مع إلحاح والـــديها وافقت على شرط أن تستكمل دراستها ولاسيما أنها في السنة الأخيرة .. اعتاد حامد أن يأتي لزيارتها كل شـــهر .. كـــان مختلفاً عن الشباب الذين عرفتهم .. خجولاً لا يتكلم كثيراً .. لا يريد الخروج معها بل يكتفي بأن يجلس معهـــا في حـــضور العائلة .

رغم أن حامد كان بعيداً عن كل أحلامها إلا أنها لم تيأس من تغييره ليلائم طموحاتها انقطعت زياراته فجأة لـــشهرين ثم جاء مختلفاً .. أطلق لحيته .. لبس الجلباب القـــصير .. أصـــبح عابس الوجه .. أخبرها بأنه التحق بعمل سيجعل منه إنـــساناً جديداً .. أمرها أن ترتدي النقاب .. زمجـــرت في وجهـــه .. نهرها أبوها وقال له :

– عندما تعقد عليها تصبح في طوع أمرك

غضب حامد واتهمهم بمعصية الله .. ربتت أمها على كتفه قائلة :

– أهدأ يا ابني .. البنت صغيرة وتجيء بالسياسة

انتفض واقفاً :

– أنا لازم أعقد عليها حالاً

رد أبوها وهو يحايله :

– تمام يا ابني .. خلي أبوك يكلمني بالتليفون علشان نتفق على كل شيء

– وهو كذلك

قالها وخرج مسرعاً من باب البيت .. أجهشت باكية في صدر أمها .. هدهدتها مطمئنة إياها بأنه مازال صغيرا لا يعرف شيئا وأكيد أبوه سيعقله .. مرت أيام و لم يتصل حامد أو أبوه.. بل انقطعت أخباره حتى عن عائلته .. اختفى حامد .. قالوا أنه رحل مع جماعته الدينية للدعوة بين الكفور والنجوع.. ارتاحت سناء لاختفائه واستأنفت حياتها ما بين المدرسة والعمل حتى استطاعت أن تحصل على دبلوم التمريض .. تبخرت أحلامها بالعمل بالشهادة أمام الطابور الطويل من الخريجات اللواتي ينتظرن دورهن في التعيين فاستمرت في عملها

بمحل الملابس .. أفاقت سناء من اجترار ذكرياتها على يد أمها تمتد بكوب الشاي .

لن تنسى يوم رجعت إلى البيت، وجدت أمهــا ترتــدي السواد والأب بالبيت بغير عادته سألت .. أخبروها أن حامد قتل أثناء مطاردة الشرطة لجماعته .. برغم حزنها عليه إلا أنهــا شعرت بأنها تحررت من أغلال كانت تكبلها .. رفــضت أن ترتدي السواد .. قالت لأمها .. وهل كان زوجي .

عندما عمل أبوها كحارس لفيلا د.حسين عارف انفتحت أبواب السماء لها .. فلقد أخذ الرجل على عاتقه أن يلحقهــا بإحدى المستشفيات .. اعتدلت سناء في جلستها واحتــست رشفة من كوب الشاي .. استعرضت ما حدث مع د.خالــد قائلة لنفسها :

"هل يعتبرني سهلة المنال .. ربما أكون تماديت في إشــعال غرائزه لكنه يجب أن يعلم بأنني لست عاهرة يتسلى بها بعــض الوقت ثم يركلها بقدمه بعد أن يملها"

رفعت كوب الشاي إلى شفتيها مستمتعة برشفة ساخنة .. تراءى لها د.خالد وهو يحتضنها ويقبلها .. ارتــسمت علــى وجهها ابتسامة رضا .

عرج جمال في الصباح على إحدى محلات الزهور .. انتقى باقة من الورود الحمراء .. نظر إلى ساعته كانت تعلن الحادية عشرة والنصف .. قاد سيارته حتى ستانلي .. جلس على إحدى المقاهي المنتشرة على الكورنيش بالقرب من بيت ماريا.. احتسى قهوته .. أخذ يداعب بأنامله باقة الورود متعجباً من إنه رغم معرفته بنساء كثيرات إلا أن ماريا أثارته .. لكن العجيب أنها كانت أمامه منذ سنتين في المعرض ولم تثر اهتمامه .. ربما لاضطرابه من فشل المعرض .. نظر في ساعته.. قاربت العقارب علي التعانق معلنة الثانية عشرة .. وضع ثمن القهوة على المائدة .. التقط باقة الورود .. انطلق مسرعاً .. تخطى شارعين ثم دلف إلى إحدى البنايات .. قفز درجات السلم .. وقف أمام باب شقتها عدل من هندامه وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة .. ضغط جرس الباب .. انفرج الباب عن سيدة عجوز عرف من جلبابها الداكن وقسمات وجهها التي تنم عن الشقاء إنها أم حسن .. أدخلته السيدة بترحاب وجد جمال نفسه وسط شقة أشبه بالجاليري .. فالمساحة المفتوحة الممتدة من البهو حتى الشرفة يتخللها الكثير من الأركان المزينه بالتحف واللوحات الزيتية والسيرما من مدارس فنية مختلفة ظهرت ماريا من إحدى الغرف الجانبية .. الشعر الأشقر معقوص وراء الظهر .. الوجه مشرق طبيعي دون مساحيق ..

فستان وردي من الكتان تلمع من خلاله مفاتنها عندما يخترقه شعاع الضوء المنبعث من الشرفة .. استقبلته بابتسامة رقيقة :

– أهلاً جمال

– ألف سلامة لك

قدم لها باقة الورود .. تناولتها منه قائلة :

– أوه جمال ورد بديع .. تفضل

قالتها وأشارت له باتجاه غرفة جانبية .. دخل جمال .. من الوهلة الأولى أخذت عيناه تتفحص مكتبة ضخمة تزخر بأنواع متباينة الأحجام من الكتب المتراصة دون نظام مما يشي عن تناولها بصفة مستمرة .. في مقابلها أريكة مريحة لمشاهدة التلفاز الذي يتوسط المكتبة .. ركن للقراءة مريح في أقصى الغرفة يطل علي الشرفة .

بادرته ماريا قائلة :

– هذه هي صومعتي

– رائعة .. البيت بأكمله جاليري يضم شتى مدارس الفن من الطبيعية للباروك للروكوكو حتى السريالية لكن المفاجأة كم الكتب الضخم

– أنا مغرمة بالقراءة

دعته للجلوس بإشارة من يدها .. واسترسلت قائلة :

– القراءة جمال تجعلني أحيا أكثر من حياة مما يجعل حيـــاتي أكثر عمقا ومعنى

– أنت لست قارئة .. أنت فيلسوفة

استرعى انتباهه لوحات زيتية صغيرة الحجم معلقة بتنـــاغم بجانب المكتبة .. وقف مقترباً منها عرف لوحـــة لبيكاســـو وجويا ورامبرانت ورابعة لم يتعرف على مبـــدعها .. قـــال في انبهار :

– منتهى الدقة .. تحتاج خبيراً ليعلم أنها مقلدة .. لكن لمن اللوحة الأخيرة ؟

– للمقلد .. عادل عبد المولى .. فنان مصري

– متمكن جداً من أدواته .. لكن لم أسمع عنه

– لأنه هاجر إلى أمريكا

شعر جمال في نبرات صوتها بأسى واضح ولهفة على اللقـــاء فقال بصوت يشوبه نبرات الغيرة :

– واضح إنك حزينة جداً على فراقه

نظرت له مبتسمه قائلة :

– عادل وزوجته من أعز أصدقائي

شعر جمال بالحرج وتلعثم قائلاً :

- أنا أرى أن اللوحات الأربع يشكلن وحدة واحدة كأنهن نغمات لحنية متتالية

- فعلاً جمال أنت تعلم أن اللون ما هو إلا نغم موسيقي ودرجات اللون لا تختلف في التأثير الوجداني عن السلم الموسيقي

نظر لها بانبهار قائلاً :

- ماريا .. كلما عرفتك أكثر .. كلما زاد إعجابي بك

لفتت نظره بعض الصور العائلية المتراصة على إحدى رفوف المكتبة .. اقترب .. نظر فيها ثلاثة أطفال بنتان وصبي .. رجل وامرأة ليلة زفافهما وأخرى لماريا وفتاة لا تقل جمالاً عنها .. اقتربت ماريا مشيرة إلى الصورة الأولى قائلة :

- اخواتي .. وأبي وأمي .. وهذه أنا

- والفتاة التي معك

ظهر عليها بعض الإرتباك .. وضعت المنديل على فمها وسعلت بشدة .. ترنحت .. أسرع جمال بإمساكها .. شعر بمدى طراوة جسدها وليونته .. أجلسها على الأريكة .. نظر لها في قلق قائلاً :

- سوف أحضر لك طبيباً

نظرت له في امتنان :

- جمال أنا بخير .. مجرد نزلة برد

- سأتركك ترتاحين

- أنا أشعر بالراحة في وجودك

غمرته السعادة عند سماعه لكلماتها .. أراد احتضانها .. تقبيلها .. يعترف لها بأنها فتنته .. مرت لحظات صمت .. قطعها صوته وهو يشير تجاه الصور :

- لم تخبريني من هي الفتاة التي معك

قالت بصوت ضعيف حزين :

- أختي

- وأين هي ؟

- ماتت

قالتها وأجهشت باكية :

- أنا آسف

أسرع يلتقط منديلاً ورقياً من على المائدة :

- ماريا .. أرجوك تقبلي أسفي

جلس بجوارها .. جفف دموعها .. أبحر في عينيها اللتين بلون البحر .. فرد شراعيه .. طوع عاصفتها الثائرة .. لتستكين بين أحضانه كطفل صغير .

***

حين استيقظت لبنى في صباح اليوم التالي للقاءها مع يوسف صممت على أن تفاتح زوجها في موضوع الانفصال .. فإن حياتها معه أصبحت عبئاً لا تستطيع احتماله .. تشعر بأنها تخون نفسها قبل أن تخونه إن استمرت معه .

إنها تحب رجلاً آخر وتمنحه قلبها وعواطفها سواء يبادلها هذا الرجل نفس الشعور أم لا فإن قلبها لم يعد ملكاً لزوجها خاصةً بعدما مزقه مشرط أنانيته المفرطة .

خرجت من غرفة نومها .. اتجهت إلى غرفة مكتبه .. فتحت الباب .. كان جالساً يقرأ بعض أوراقه .. نظر لها بغير اكتراث قائلاً :

– صباح الخير

كانت لبنى تقف جامدة .. لم تتجه كعادتها إلى المطبخ لإعطاء أوامرها بإعداد الفطور .. سألها زوجها في استغراب :

– ماذا بك؟

جلست على أقرب مقعد .. ابتلعت ريقها بصعوبة قائلة بصوت مرتعش :

– خالد .. نحن لم نعد نصلح لبعض .. أنا لم أعد أحتمل الاستمرار

هدج صوتها للحظات ثم تمالكت نفسها مستطردة :

– أعلم أن ما أقوله مؤلم ولكن بقاءنا معاً أصبح مستحيلا

خلع عدساته الطبية ونظر لها باندهاش قائلاً بهدوء :

– ما هذا الكلام الفارغ الذي تتفوهين به ؟

قالت غاضبة :

– سئمت أن أكون ذلك الطائر الأليف المحبوس في قفصه الذهبي ينتظر عطف سيده لبضعة لحظات بكل برود وازدرازء.. أنا لم أعد استطيع الحياة معك .. أنا أريد أن أتنفس ، أرفرف ، أطير

وقف خالد مشدوهاً للحظات ثم لملم أوراقه داخل حقيبته قائلاً بصوت هادئ :

– انت لازم فقدت عقلك .. أنا عندي مؤتمر في القاهرة ويا ريت عند رجوعي تكوني تعقلتِ

قالها وخرج مسرعاً متجهاً إلى باب الشقة

رغم أنها لم تصل معه إلى نتيجة إلا أنها شعرت بارتياح عظيم لم تتذوقه من قبل أخيراً .. استطاعت أن تبوح .. تعلن عن مكنونها .. إنها مجرد البداية ولن تكون النهاية .

(٦)

أوقف هشام إحدى سيارات الأجرة .. ركب مسرعاً .. نظر إلى السائق .. كان مسناً ممتلأً وجهه التجاعيد .. أخبره هشام بوجهته :

– قصر الثقافة

سارت السيارة تطوي الطريق ببطء .. فجأة صاح الرجل :

– بنك مصر يا أستاذ

– أنا عايز قصر الثقافة .. إنت نسيت يا حاج

– الله يرحمك يا طلعت يا حرب .. تفتكر يا أستاذ لو رجع الوقت كان قال إيه؟؟!!

– يعوض الله

– عندك حق يا أستاذ .. تصور إن حفيدي بيدرس في القبول إنجازات طلعت حرب وكيف حرر الاقتصاد المصري من النفوذ الأجنبي .. يظهر الحكومة غفلت إنها تحذفه من المقرر

– لا تنسى يا حاج .. قصر الثقافة

أطلق الرجل ضحكة ساخرة قائلاً :

- ثقافة .. وفين هي؟؟!! لا مؤخذة يا أستاذ .. الواحد مننا ساعات ينفس عن همه بقفشة بطرفة ما هو ده آخرنا يا بني

مد يده وفتح المذياع ليصدح صوت الست .. "عايزنا نرجع زي زمان قول للزمان إرجع يا زمان" صاح الرجل :

- الله يا ست .. آه قول للزمان إرجع يا زمان.. والنبي يا أستاذ يصح زمان الجمال والرقي يرجع لأيام القبح والعري

- احمد ربنا يا أسطي إنك عشت فترة في حياتك في زمن راضي عنه

صمتا وأخذا ينصتان لصوت الست لا يزعجهما سوى أبواق السيارات المتسابقة حولهما .. بعد فترة هدأت السيارات من سرعتها .. انبعث صوت السائق :

- قصر الثقافة يا أستاذ

ترجل هشام .. مر من بوابة القصر .. سأل عن الندوة الأدبية .. أشاروا له علي إحدى القاعات .. اتجه إليها .. دخلها .. كانت ضيقة لا تتسع لأكثر من خمسين فرداً على الأكثر .. أما الحضور فكانوا أقل .. لمح يوسف على المنصة منهمكاً في إلقاء محاضرته .. جلس على أقرب مقعد خال وأخذ يتابعه .

" إن الحداثة بروافدها من تجريدية وسريالية وغيرها قد تكون ممكنة في الفن التشكيلي لوجود الألوان والخامات التي

يشكل منها الفنان تعبيره الذاتي .. ولكن التعبير الأدبي يعتمد على الألفاظ التي لها معان خاصة اتفق عليها الناس منذ زمن بعيد لذا يصبح عسيراً على الأديب أن يسقط عن اللفظ معناه ويراد به معنى آخر وليد ذاتيته " .

ختم يوسف حديثه .. جاء صوت التصفيق هزيلاً من الأكف القليلة الحاضرة .. صافح يوسف معظم الحضور .. لمح هشام .. احتضنه طويلاً .. بادره هشام قائلاً :

– هيا بنا ننطلق

– إلى أين؟

– أترك لي نفسك وسترى

خرجا من القصر .. استقلا سيارة أجرة .. نزلا في شارع طرح البحر .. توغلا في الطريق المؤدي إلى الرمال .. وصلا إلى شمسية في ظلها مقعدان ومائدة .. وضع يوسف حقيبته على المائدة رفع ذراعيه محتضناً هواء المتوسط لعله يستشعر به نسمات ستينية تعيده لبواكير الطفولة .. صاح في سعادة :

– إنك حققت لي حلمي بأن أرى هذا الشاطئ من جديد

جلسا يجترا ذكريات الطفولة البريئة .. لعبهما .. ضحكهما.. مشاحناهما .. امتازت علاقتهما دوماً بأنها ذات

طابع فريد .. رغم أهما لا يتقابلان لفترات طويلة قد تصل إلى السنة إلا أهما وجدانياً يكادان يتطابقان .. فهما يفهم كلاً منهما الآخر بمجرد تلاقي النظرات يتواصلان بمجرد أن يتحاورا .. استنشق يوسف يود المتوسط قائلاً :

– ماذا حدث للبلد .. لقد أصبحت مهجورة .. لهذه الدرجة إلغاء المنطقة الحرة أثر عليها ؟

ينظر هشام بعينيه الضيقتين اللتين تشعان أسى قائلاً :

– وأكثر من ذلك .. يا أخي نحن منذ يوم عودتنا من الهجرة وبورسعيد اتخذت كحقل تجارب من قبل النظام .. أصبحت منطقة حرة بدون دراسة أو تخطيط وبعدما اعتاد الناس على أسلوب حياه معين لعشرات السنين وبجرة قلم ألغى النظام المنطقة الحرة بحجة أها السبب في الهيار الاقتصاد المصري بالرغم من أن جملة ما تستورده لا يشكل أكثر من ١٠% من إجمالي الواردات المصرية .. وفجأة .. وجدوا أن بورسعيد بها أراض كثيرة يمكن استصلاحها بالرغم من أن هذه الأراضي شديدة الملوحة ولا تصلح للزراعة ودون النظر إلى المواطن البسيط الذي اعتاد على التجارة والذي لا يمكن أن يتحول بين ليلة وعشية إلى مزارع .. المهم الفكرة فشلت .. فأفاقوا على أن بورسعيد بلد سياحي وبدأوا يروجون لذلك غافلين بأها ليست شرم الشيخ أو الغردقة أو مطروح .. فمياه شواطئها لا تجذب العين بلوها الرمادي القاتم من كثرة مرور السفن ثم نزعة المدينة

الدينية التي لا تسمح بتوفير مقومات السياحة الترفيهية .. المهم أن عباقرة التخطيط لم يدركوا أن موقع المدينة الفريـــد كونـــه ميناء يتوسط قارات العالم القديم وبه أهـــم شـــريان مـــائي في المعمورة وبشيء من التطوير يمكن أن تصبح المدينة كعبة لبضائع الترانزيت بالاضافه لسياحة المعـــارض والمـــؤتمرات .. آه يـــا يوسف .. واضح أنهم لا يرون ولا يريدون أن يروا .

– هون عليك .. لا تجعل الهم يقهرك

– يقهرني .. نحن جميعاً مقهورون .. نحيا كقطيع يـــسوسه أحدهم حسب هواه .. تارة يميناً .. وتـــارة يـــساراً .. أمـــا الأحرار هم من يختارون من يقودهم لفترة فإذا انقضت عـــادوا ليختاروا آخر يكمل المسيرة .. وهكذا .

– إذن لماذا لا تكون فعـــالاً وتحـــاول أن تغـــير الـــصورة بالمشاركة في المجالس المحلية مثلاً أو النقابات ؟

يرد عليه هشام بانفعال :

– هذه قنوات مهمشة ومقيدة بأغلال ســـلطوية تجعلـــها كالدمى في أيدي النظام

لم يعد يوسف يتابع كلام هشام بل سرح بعيداً في منظر البحر ورماله المزينة بقواقع القاع التي تلفظها السفن العـــابرة .. ارتسم طيفها له .. خارجة من المياه مبتلة ترتدي رداء البحـــر بلون زبده شعرها الفاحم اللاصق على جبهتها وكتفيهـــا ..

جسدها الرقيق المرتجف يضفيان عليها سحراً أخـاذ .. وقـف يوسف .. اقترب منها .. نظرت له بعينيها اللتين تشعان فيـضا من الأنوثة الممزوجة برغبة المعانقة اقترب أكثر .. هت طيفها متلاشياً .. سمع صوت هشام :

- يوسف ماذا بك؟

لم يرد عليه كأنه لم يسمعه .. أطال النظر في البحر .. مسح وجهه بكفيه .. نظر له كأنه أفاق من خدر .. رد عليه بصوت خافت :

- واضح أن البحر لعب بخيالي

- عروس البحر ولا النداهة؟؟!!

ضحكا .. نظر يوسف إليه قائلاً :

- ماذا عن عملك بعد الخصخصة؟

لا جديد سوى إبرامهم لنا عقود عمل تجدد سـنوياً .. أصبحنا ثلاثين موظفاً بالفرع بعدما كنا مائة وعشر موظفاً .

- هل تم فصل الباقي؟

- لا .. بل أجبروا على الخروج إلى المعاش المبكر بعد أخذ مكافأة لا بأس بها

- وكيف أجبروا؟؟!!

– عندما تجد نفسك جالساً وراء مكتب بدون دور تلعبه في البنك فتشعر بمدى ضآلتك .. ثم يخبروك أنهم يحتاجونك في فرع العريش أو الطور .. وأنت تعرف طبيعة العقلية البورسعيدية ومدى تشبثها بالأرض .. فبورسعيد بالنسبة لهم هي الملاذ وجنة الفردوس ففكرة فراقها أمر مستحيل .. ففضلوا أن يرحلوا إلى المعاش المبكر بعواقبه الوخيمة على أن يتركوا ذويهم وملاذهم ويرحلوا بعيداً

– ولماذا لا يحاولون العمل في مكان آخر؟

– يا يوسف سن الأربعين غير مرغوب به في سوق العمل ومع هذا حاول كثير منهم طرق الأبواب وقليل منهم اعترك التجربة ولكن لم يتأقلموا لأسباب عدة .. فمنهم من وجد نفسه يعمل عند أحد العملاء الذين كان يتعامل معهم في البنك بالند فأصبح لا يستطيع أن يرفع عينه في وجهه .. بل مطالب بأن يحتمل صوته العالي وغضبه المحتمل ومنهم من وجد نفسه يعمل لساعات طويلة شاقة مقابل مبلغ زهيد من المال لا يتناسب مع قدراته لذا فإن معظمهم فضل أن يمكث بالبيت يتابع دروس الأولاد يشاهدون التلفاز .. يقرأون الجرائد .. يصلون فروضهم بالمسجد .. يلعبون النرد مع بعض الزملاء على أحد المقاهي وينتظرون أول كل شهر ما يفيض به عليهم

البنك من عائد زهيد مقابل ما وضعوه مما تبقى من مكافأة المعاش المبكر

- أكيد حالتهم النفسية سيئة

- عندما تقابلهم يبدون لك متماسكين سعداء لكنك تلمح في عيونهم نظرة أسي .. ندم وكذلك الحساسية المفرطة التي تنتابهم من تعامل زملائهم السابقين تجاههم .. قال لي أحدهم أنه عندما يصل إلى مسامعه صباحاً أصوات سيارات زملائه تتحرك متجهة إلى أعمالهم يبكي كالطفل

- على فكرة يا هشام أنا في غاية الأسف لعدم تمكني من حضور عرس أختك

- أحمد الله على إنهاء واجبي بزواج أختي قبل أن يحدث لي شيء

- لماذا أنت متشائم دائماً ؟

كان هشام برغم ما يكابده من معاناة المرض ومخاوفه تجاه عمله إلا أنه لا يريد أن يظهرها أمام يوسف .. دائماً ما يرتدي أمامه قناع السعادة والرضا قائلاً لنفسه .

"ما ذنب يوسف حتى أشركه في هموم هو في غنى عنها ثم إنه لن يستطيع حلها .. بل سأترك له شعوراً بالعجز واليأس لعدم قدرته على مساعدتي"

قال صائحاً :

- يوسف .. ألم تجع بعد؟

- بصراحة أنا جائع جداً لكني تصورت إن الأكل خـــارج حساباتك

ضحكا عالياً وهم يتوجهان سيراً إلى أحد المطاعم

***

اكتسب د.خالد من ممارساته الإجتماعية العريضة الكثير من فن مد الجسور مع الآخر مما أورثه شبكة قوية مـــن العلاقـــات البناءة أوصلته بأن يشار إليه بالبنان في أمانة الحزب بمدينتـــه .. بل أصبح من الذين يحرص مسئولو المحافظة علـــى تواجـــده في استقبال الشخصيات الهامة مما جعله معروفاً لدى كثـــرة مـــن قيادات النظام وخاصة د.كمال مدحت أحد أهـــم واضـــعي السياسات بالحزب .. ذلك الرجل الذي هـــبط علـــي لجنـــة السياسات فجأة بمظلة العلاقات .. جاء من كـــواليس رابطـــة الطلاب المصريين بالولايات المتحدة الأمريكية .. كونه عـــضواً بها أتاحت له التداخل والانغماس برجال السفارة والمـــسئولين الزائرين على مدار سنوات دراسته .. وعنـــدما نـــال درجـــة الدكتوراه في اقتصاديات العالم الثالث وجد من يرشحه ليكون

أحد مستشاري لجنة السياسات التي بزغ نجمه فيها وأصبح بعد وقت وجيز مكلفاً بتطوير وإعادة هيكلة كوادر الحزب ليواكب التغيير المستقبلي للنظام السياسي بالبلد .

يتذكر خالد أول لقاء جمعهما كان في النـــادي الـــسياسي عندما قدموه إليه بأنه صاحب مصح مشهور بالمدينة .. ابتـــسم بوجهه الممتلئ ذي الإبتسامة المرسومة .. شد على يده قـــائلاً بصوت ناعم :

– إذن لن نذهب ثانياً إلى مصحات الخارج

من هذه اللحظة فك خالد شفرة كيـــف يـــصبح عـــضواً برلمانياً.. كان الحل في كلمتين "كمال مدحت" .. عرف عنـــه كل شيء وخاصةً ولعه بجمع القطع الأثرية وخاصةً الـــساعات فأبدى حسن النوايا بالعطايا مـــروراً باستـــضافة ضـــيوفه في مستشفاه لإجراء الفحوص والاستجمام .. وها هـــو يطلـــب لقاءه.. تساءل كثيراً لماذا يريد مقابلته ؟ .. هل لشكره علـــى ساعة الحائط الأثرية التي ترجع إلى العصر الفيكتـــوري أم أن هناك شيء آخر ؟

خطى خالد بوابة أحد النـــوادي الأرستقراطيـــــة بإحدى ضواحي العاصمة .. عرف نفسه لأحد موظفي الاستقبال قاده إلى أحد الأبواب المغلقة علي جانبي البهـــــو الشاسع .. انفرج

الباب عن قاعة واسعة بها عدد من الصالونات الراقية رآه في إحداها وسط عدة رجال يجالسونه .. اقترب منه لمحه د.كمال.. قام مصافحاً له .. أخذه وجلسا في صالون آخر .. بادره بصوته الناعم :

– أنا آسف .. مجتمع مع بعض إخواننا العرب من أجل جذب استثمارات جديدة للبلد

– طبعاً يا فندم كان الله في العون

– المهم .. إنت تعلم أن انتخابات مجلس الشعب قربت .. ونحن متوسمون خيرا في عدة وجوه جديدة واعدة تصلح للمرحلة القادمة وطبعاً أنت أحدهم

وقعت الكلمات على مسامع خالد كحلم يتحقق أمامه .. كزخات المطر التي تشتاقها أرض جدباء .. تاه في مفردات الرجل .. طار في الفضاء الفسيح .. لامس السحاب .. انتفض على صوته :

– د.خالد .. هل تسمعني؟

– طبعاً يا فندم .. هذا شرف كبير لي

– على خيرة الله

قالها ووقف منهياً المقابلة .. شد على يده قائلاً :

– على فكرة يا دكتور معانا صديق عربي يريـــد مـــشاهدة الإسكندرية ويستجم عندك عدة أيام

– يشرف يا فندم

خرج خالد من النادي بخطوات فرحة .. أخيراً سيصبح من صناع القرار .. ركب سيارته أراد أن يحتفل .. تمنى أن تكـــون سناء معه .. تراءى له وجهها الداعي للتقبيل وجسدها المرحب دائماً .. كم يريد الآن أن يحتويهـــا بعينيـــه .. يحتـــضنها .. يذوب.. يتلاشى ..فيها.. صدمه سؤال طاف بخلده فجـــأة .. هل وقع في عشقها؟؟!! .. هو من عرك حياة الليل بكل نزواتها وفجورها .. ابتسم صائحاً :

– ليكن .. ما أجمل العشق !

***

بات جمال مسكوناً بطيف ماريا .. توالـــت لقاءاتهمـــا .. تعانقت مشاعرهما .. علمته حب القراءة والمعرفـــة .. علمهـــا عشق الفرشاة ورائحة الألوان .. يشتاق لرؤيتها بمجرد فراقها.. لأول مرة لا يفكر بالترحال .. فهي أشـــبعت وجدانـــه فنـــاً وجمالاً . وجد بغيته التي طالما بحث عنها في سفرياته الـــسمت الأوروبي الخلاب والروح الشرقية الساحرة .. كانت الفرشـــاة

ترقص التانجو في يده .. تتقافز برشاقة واضعة الرتوش الأخــيرة على اللوحة .. تراجع خطوتين للخلف متأملاً ما أنجزه :

- ما أروعك يا ماريا !

قالها في رضا تاركاً بالتة الألوان .. اتجه إلى الحمام .. استحم سريعاً .. ارتدى أجمل حلة لديه .. وقف أمام المــرآة طــويلاً ليتأنق .. هبط درجات السلم مرفرفاً بجناحي السعادة .. نظرت له أخته متسائلة عن سبب سروره المفاجئ .. نظر إليها متمتماً: اليوم سأحقق لك ما تتمنين

لم يكن واثقاً من قرار اتخذه في حياته أكثر من ثقته عنــدما قرر الارتباط بماريا .. لذا اتصل بها في الصباح .. حدد موعــداً لمقابلتها .. أخبرته بأنها لن تخرج ودعته إلى العشاء في شقتها .

عندما جلس أمامها لم يكن يفكر إلا في شيء واحد .. هو كيف يفاتحها .. هل ينتظر إلى ما بعد العشاء .. أم يسرع الآن بإخبارها .. تحرك جسده بعفوية مقترباً منها .. انجذب لعينيها كعادته أبحر بقارب عشقه في زرقة بحيرتها الصافية .. هدهدت خوالجه .. أزالت توتره .. باغتته قائلة :

- عيناك بها كلام

ضحك عالياً

- لماذا تضحك؟

– لأنك بتفهميني وكأني كتاب مفتوح أمامك

– لا تنسي أني دودة قراءة

يقترب منها أكثر .. يحتوي كفها الرقيق بين يديه :

– من فضلك جمال إتكلم لأني لازم أساعد أم حسن في إعداد العشاء

ينظر لها بشغف قائلاً :

– تتزوجيني ماريا

تنتفض مذعورة كأنها صعقت .. تقفز من جانبه .. تتجه مسرعة إلى التراس .. يقف جمال مكانه مذهولاً للحظات .. يسرع إليها .. يجدها واقفة تنظر إلى البحر في سكون .. يحتضنها من الخلف .. تفلت جسدها منه .

– ماريا .. هل قلت ما يخيفك؟؟!!

– الزواج

– وماذا في الزواج؟؟!! .. أي قصة حب حقيقية منطقياً يجب أن تنتهي بالزواج

تتجهم قسمات وجهها قائلة بانفعال :

– الزواج صخرة تحطم الحب .. معظم المفكرين والفلاسفة أقروا ذلك

- هذه وجهة نظرهم .. أما أنا أريد تكوين أسرة مع من أحب .. معك ماريا

- الزواج مشروع اجتماعي فاشل .. هكذا قال نيتشه

- الزواج اجتماع إرادتين لإيجاد شخص ثالث أفضل من الزوجين .. وعلى فكرة نيتشه قال ذلك أيضاً

- لكن أنا مؤمنة بأن الزواج طقس حياتي مزعج وغير مهم

احتضنها من خصرها بذراعيه .. مسح بيده على شعرها الأشقر قائلاً بصوت خافت حنون :

- أنت غير مؤمنة بهذه الترهات .. أنت خائفة من خوض التجربة لأن أمامك دائماً إخفاق أختك وانتحارها

تصدر منها آهة تنم عن مفاجأتها .. تتخلص من ذراعه .. تستند على سياج التراس .. تنظر له في ذعر .. تنفجر باكية .. يندفع إليها لتهدئتها .. تصده بيدها .. يخرج صوته متحشرجاً :

- آسف ماريا

تقاطعه بصوت ناحب غاضب :

- أرجوك أتركني وحدي

تأتي أم حسن على صوت بكاءها .. يصطدم بها جمال عند خروجه .. يهمس لها :

- لا تتركيها الليلة

تطمئنه بإيماءة من رأسها .. هبط درجات السلم في بطء متسائلاً .. هل ما فعله كان صوابا؟؟!! .. كل ما أراده أن يعبر بها نهر خوفها من تجربة أختها مارتا .. تلك الحسناء اليونانية التي تزوجت من ثري جنوبي أحبته بجنون .. برغم تعليمه وتخرجه في أرقى الجامعات الأوروبية إلا إنه كان مسكوناً بالعادات الجنوبية الرجعية .. بعد أن تزوجا وعاشا فترة في الإسكندرية يرفلان في نعيم الحياة الزوجية الهانئة التي لا يشوبها إلا غيرته الجنونية عليها .. تعلل بعد عدة أشهر بأن شئون ممتلكات عائلته ومزارعها تستدعي أن يعيشا في احدي قرى سوهاج لاسيما وهو الابن الوحيد للعائلة .. هناك أسدى لها عدة نصائح لما يكون عليه سلوكها معللاً لها بأنها قرية صغيرة.. الأعين المتلصصة والألسنة اللاذعة هي التسلية المفضلة لديهم .. مع الأيام .. نمت النصائح وتحولت إلى توجيهات ثم إلى حصار فسجن كامل عندما فرض عليها عدم الخروج إلى المدينة للنزهة أو للتسوق بمفردها .. حتى السماح لها بالذهاب إلى الإسكندرية لملاقاة أسرتها أصبح مرة واحده في الصيف برفقته.. أصبحت مع مرور الأيام سقيمة خاصةً بعد سفر أخيها إلى اليونان وقلة زيارات ماريا لها لمضايقات زوجها بمراقبة تصرفاتها

جعل ماريا تكتفي بأن تطمئن عليها عبر الهاتف .. سربلها رداء الكآبة القاتم .. حبست نفسها في غرفتها تجلس شاردة أغلب الساعات أمام النافذة تبحلق في السماء أو تراقب الأطفال وهم يلعبون .. يمرحون بجانب شاطئ النيل .. تتحسس بطنها الصائم عن حمل أمثالهم تدمع عيناها في حسرة .. كان حب زوجها الجارف لها ـ رغم عدم قدرتها على الإنجاب ـ سبباً في تحملها هذه الحياة .. لكن عندما رضخ إلى ضغط الأهل من أجل إنجاب ولي العهد من أخري .. طلبت الطلاق نهرها .. أهانها .. بكى بين ذراعيها .. أخبرها بأنه لا يستطيع الحياة بدونها .

أيقنت حينها بأنها كالجنة المثمرة يستحيل على الجنوبي أن يفرط فيها إنها مسأله شرف عندها فكرت أن تسدل الستار على عرضها الهزلي .. لم يكن هدفها إنهاء معاناتها بقدر ما كانت تريد إطلاق صيحة احتجاج مدوية في وجه العادات والتقاليد الهدامة .. باتت كالرهبان البوذيين الذين يشعلون النار في أجسادهم للاحتجاج على ظلم ما أو التنبيه إلى قضية عادلة.. يومها تراءى لها من النافذة يسبح وسط النجوم .. يتلألأ ضياءً .. ينادي عليها وبيديه إكليل من الزبرجد والياقوت .. خفق قلبها بشدة .. تراقص على أنغام ترانيم الجوقة المنشدة من حوله .. لم تتردد .. اقتربت .. ألبسها الإكليل .. أحست بصفاء نفس لم تعرفه من قبل .. أمسك

يدها .. سبحت معه مبتعدة .. حتى تحولت إلي طيف مضيء .. يومها أعلنوا أنها انزلقت ففقدت توازنها وسقطت من النافذة .. بينما لاكتها الألسنة الشامتة بأنها انتحرت هرباً من جحيم العائلة .

خرج جمال من بوابة العمارة .. اتجه إلي سيارته .. جلس بداخلها :

"هل أخطأت حين سألت أم حسن عن موت مارتا .. المرأة لم تنتظر لأكمل سؤالي .. انطلق لسانها يحكي ويفضي ربما لإحساسها بحبي الصادق لماريا .. لكني لم أتوقع رد فعلها العنيف .. هل تسرعت بعرض فكرة الزواج عليها"

وضع يده على مقود السيارة نظر إلى أفروديت وجسدها الرائع الملتوي حول عمود الصواري المتدلي من دلاية السيارة تذكر يوم أن أهدتها له قائلة :

- لكي أبقي معك طول الوقت

- لكنها أفروديت ماريا

- جمال أنا .. أفروديت

ضحكا كثيراً .. مازال ضحكها في أذنيه .. أدار بيد مرتعشة محرك السيارة .. تعالى صوتها مزمجراً .. مشعلاً هواجسه .. ضرب بكلتا قبضتيه مقود السيارة .. ضغط على دواسة البنزين لتنطلق مسرعة لافظة سحابة كثيفة من الدخان .

(٧)

خطت لبنى داخل حديقة CLUB HOUSE لنـــادي سبورتنج .. مسحت المكان بعيون مشتاقة المقاعد .. الموائد .. الأشجار العتيقة .. توجهت لأحد الأركان .. جلست حيـــث كان يجلس والدها للقراءة :

– أبي ألا يوجد لك أصدقاء؟

ينظر لها في محبة قائلاً :

– الكتاب أوفى صديق للإنسان عندما تحتاجينه تجدينه دائماً

"كنت بنت أبي .. يصطحبني دائماً إلى النادي .. يطلقني في حديقة الأطفال لألهو ويذهب لصديقه الكتـــاب في CLUB HOUSE حيث لا يسمح للأطفال بالتواجـــد بهـــا فهـــي للناضجين فقط.. ألمحه من حين لأخر يأتي ليطمئن علـــي مـــن وراء السياج ثم يعود أدراجه قبل أن أراه .. أتذكر عندما نبت لدي ما يلفت العيون .. اقترب أحدهم مني هامـــساً بمعـــسول الكلمات .. وقفت مشدوهة مذهولة، إلا إنني استحسنت مـــا سمعته .. احمرت وجنتاي .. تلعثمت ببـــضع كلمـــات غـــير مفهومة لكني لم أزجره وبشيء من السذاجة هرولت إلى أبي .. أخبرته بما جرى .. من يومها تغيرت عاداته .. لم يعد يتـــركني

أتجول كثيراً مع صديقاتي حول مضمار النادي .. بل يصر على أن أجلس مع العائلة حـــول حمـــام الـــسباحة أو في ملعـــب الكروكيه.. كرس جلساته معي بإعطائي النصح المصبوغ بلون الصداقة خاصةً عن مدى خطورة مرحلة المراهقة وعلى الفتـــاة أن تعمل على بناء شخصيتها بمعرفة دينها ودنياها ولن يتـــأتى هذا إلا بالمعرفة عن طريق القراءة .. حتى تصير الفتـــاة واعيـــة راقية .. كم هو جميل هذا الرجل وكم افتقدته في معاناتي مـــع أمي وأخي لكني أدين بالامتنان طيلة حياتي لهـــذه الكلمـــات المعسولة التي تهادت إلي من هذا الشاب .. رغم ســـذاجتها إلا أنها أزاحت غشاء عذريتي العاطفية .. صحبتني لحدائق وارفـــة من الموسيقى والأغاني وشعر نزار قباني والروايات العاطفية .. عرفت سحر المرآة ، عشت سنين بعدها أنتظر أن تقـــع علـــى مسامعي ثانيةً مثل تلك الكلمات البسيطة التي لم يتلفظها خالد أبداً .. كم جميل الحب الذي يحيل حياة الإنسان إلى ربيع" .

أفاقت لبنى على وقع كعب حذاء حريمي يقترب .. رفعـــت ناظريها رأت زيزي تقترب مشرقة .. تعانقتـــا .. جلـــستا .. أخذت زيزي تروي معاناتها في إدارة المدرسة ومدي إجهادهـــا في الإشراف على امتحانات نصف العام .

شردت لبنى محدثة نفسها "إن ما يغمرني من مشاعر الحـــب يدفع لساني لإخبارها بمشاعري تجاه يوسف .. لكني أخشي ألا

تفهم وتتهمني بأني أريد ترك زوجي من أجله .. وحـــتى لـــو تفهمت هل أقول لها بأني أحب رجلا لا يعرف بأنني أحبـــه" لاحظت صمت زيزي فقالت مبتسمة :

- زيزي .. أنا أخبرت خالد برغبتي في الطلاق

- أخيراً يا لبنى

- لكن للأسف أخذ كلامـــي علـــى محمـــل الـــسخرية والاستخفاف

- غادري المترل .. يجب أن يشعر بجديتك

- سأفكر في الأمر

- على فكرة يا لبنى .. يجب أن تقرري في عرضي لـــك .. أنا في أشد الحاجة لمدرسة لغه فرنـــسيه .. أرجـــوك وافقـــي وأريحيني

قالتها وتناولت رشفة من كوب العصير .. فجأة اهتـــزت يدها .. جحظت عيناها .. تقلصت شفتاها .. صرخت صرخة مدوية ثم انكفأت رأسها على المائدة .. قفزت لبنى من مكانهـــا مرعوبة صاحت :

- زيزي ماذا بك؟؟؟

احتضنتها .. رفعت رأسها .. ظهر وجهها محتقناً .. زائغـــة النظر .. ملتوية الشفاه .. تئن في ألم .. تجمع بعض الـــرواد .. نظرت لبنى في فزع صائحة :

- دكتور .. دكتور أرجوكم

تقدم أحدهم .. اقترب من زيزي .. فحص عينيها .. أمسك معصمها للاطمئنان على النبض قال بنبرة جادة آمرة :

- إسعاف .. بسرعة

قالت لبنى بصوت باكي وهي ممسكة بهاتفها النقال :

- انه في الطريق .. ولكن أرجوك طمئني عليها

- يجب أن تنقل إلى المستشفي بسرعة

وقفت لبنى مرتكنة على حائط صالة الانتظار بمستشفي زوجها .. أضواء المصابيح البيضاء الأبواب المغلقة على مرضاها.. حركة الممرضات والأطباء الدائبة .. كل هذا يجعل طواغيت الخوف تنهشها .. سالت دموعها .. يدها ثقيلة تأبى الحركة لمسحها .. بات فكرها مشلولاً .. فها هو حائطها الصلد ينهار أمامها .

خرج خالد ومعه مجموعة من الأطباء من غرفة العناية المركزة .. جرت لبنى بلهفة تجاهه نظر خالد لها قائلاً بانفعال :

- اطمئني .. الحالة استقرت والجلطة في طريقها للذوبان

دخل جمال في هذه اللحظة في حالة رثة .. ارتمى بين ذراعي خالد .. اختنق الكلام في حلقه دمعت عيناه .. أجلسه على

أقرب مقعد .. اقتربت منه لبنى .. طمأنته .. لم يعرف جمال يوماً الخوف على أخته بل إنه اعتاد على أن تخاف هي عليه .. ربما نمط حياته البوهيمي الذي غلف سلوكياته بعدم الاكتراث.. أو ربما أسلوبها هي في الاعتناء الزائد به جعله يعتاد على الأخذ دون العطاء .. لكن حبه الطاغي لماريا أذاب جليد عدم اكتراثه .. أصبح يرى من حوله بوضوح أكثر بعاطفة أوضح .. عندما أخبرته لبنى عبر الهاتف .. وقع الخبر عليه كالصاعقة .. أحس بأن قرص الشمس الذي يضيء حياته يغيب .

اقترب أحد الموظفين من د.خالد همس له :

– ضيف كمال بيه وصل يا فندم

التفت خالد إلى جمال قائلاً :

– أنا مضطر أستأذن يا جماعة

قالها وذهب مسرعاً .. نظر جمال للبنى قائلاً :

– أنت متعبة جداً .. أرجوك يا لبنى أذهبي إلى البيت لتستريحي

نظرت له بعيون زائغة ووجه مجهد . أسترسل قائلا:

– أرجوك لا تشعريني بالذنب .. على الأقل اذهبي لتستريحي في استراحة خالد

أومأت له برأسها بالموافقة

***

استقبل د.خالد الضيف العربي .. أسكنه في أفخر جناح بالمنتجع الصحي الذي يعلو المستشفي عين لخدمته أكفأ طاقم من الممرضات وأمهر الأطباء .. هبط إلى مكتبه ليرتاح .. تناول مشروبا من المبرد تجرع ما في العلبة دفعة واحدة .. جلس وراء مكتبه .. تناول سيجارا .. أشعله .. سحب نفساً عميقاً أخذ يتأمل سحب الدخان المنبعث من سيجاره .

"يرى يوسف أن من يدعي الحب من نظرة واحدة لا يكون حبه إلا نوعاً من الشهوة لأنه يتعلق بالصورة الحسية أما الحب فهو يتحقق حين تميز النفس شيئاً وراء هذه الصورة وهذا يتطلب وقتاً أطول من نظرة واحدة تباً لك يا يوسف ولرأيك فها أنا أحب من النظرة الأولى .. لا أنكر بأن الصورة سحرتني.. فتنتني لكني أيقنت أنها هي من خفق قلبي لها دونما احتياج لأي وقت طويل"

بدون أن يرى ضغط على زر بجانبه مستدعياً سناء .. ذهب إلى المرآة يعدل من هندامه، تأمل وجهه .. خطوط قليلة من التجاعيد بدأت تظهر أسفل عينيه .. سمع طرقاً على الباب .. ينفرج عن سناء بقوامها الممشوق ووجهها الساحر الموقظ للغرائز .

- أفندم يا دكتور

اقترب منها .. نظر في عينيها قائلاً بصوت خافت :

- أنا آسف يا سناء

- أنا يا فندم لست فتاة رخيصه

- طبعاً .. طبعاً

قالها وجلس على مقعده الجلدي الوثير في خجل .. نظر لها بعيون مستعطفة قائلاً بصوت ضعيف نادم :

- ماذا تريدين لأكفر لك عن خطأي؟

اقتربت منه بدلال .. جلست على مسند المقعد .. احتضنت رأسه بين نهديها .. عبثت يدها بحنان في خصلات شعره .. طبعت قبله على جبينه .. لامس بشفتيه ما بين نهديها.. أحاط بذراعيه خصرها وسحبها لتجلس على ساقيه .. أمطرها بوابل من القبلات الناعمة على جيدها ووجنتيها وكأن شفتيه تائهتان تبحثان عن ضالتهما في تلك الشفاه الغليظة المكتنزة .

لاحظ خالد بطرف عينه أن مقبض الباب يلتوي لأسفل وقبل أن يسارع بإبعاد شفتيه عن ذلك الثغر الملتهب .. انفرج الباب عن وجه لبنى بقوامها الرقيق .. سارعت سناء بالوقوف

عن ساقي خالد الذي شحب لونه وكأنه رأى ملاك الموت .. نظر حوله في ذهول .. تلعثم قائلاً :

- أ أ أهلاً لبنى

- حقير

قالتها وصفقت الباب بشدة .. لم تتجه إلى المصعد بل هرولت هابطة درجات السلم خرجت من المستشفي .. وقفت في الشارع تنظر حولها في شرود .. تحاملت على نفسها .. اتجهت إلى سيارتها .. جلست فيها .. نظرت لنفسها في المرآة.. هي تعلم أنه يخونها ولكن بعيداً عن عينيها فكانت مجرد تكهنات .. تخيلات .. لكن عندما ترى المرأة بعينيها زوجها بين أحضان أخري حتى وإن كانت لا تحبه فهذا كفيل بكسرها.. بامتهانها .. يضعها المشهد أمام حقيقة مرة بأنها غير مرغوب فيها .. غير مكتملة الأنوثة .. لا تصلح لإشباع غرائز الرجل .. انكفأت على عجلة القيادة .. أجهشت في البكاء .

***

لم يعد هشام يثق فيمن حوله في العمل فخصخصة البنك وما تلاها من إبرام العقود للموظفين وما يتطلب لتجديد هذه العقود من تقارير تقيم كفاءة الموظف الذي يعدها المدير

ويرفعها للإدارة كل ثلاثة أشهر أحالت البنك إلى سفينة يونس الكل في انتظار ما ستسفر عنه القرعة ليسقط في اليم المجهول .

وعلى الرغم من التغيير الذي طرأ على المدير إلا أن النفـور يورث والانطباع السيئ عنه يدوم رغم عملـه الجيـد إلا أن الكفاءة دائماً لا تكفي لتغيير الصورة فيجب تدعيمها بـالكثير من الرياء وعرض الخدمات وهذا ما لا يجيده هـشام فيـستمر التجاهل والتهميش في وظيفة لا تستنفر طاقاته الإبداعية كـل هذا أدى إلي تدهور حالته الصحية بسبب عدم السيطرة علـى نسبة السكر في دمه وارتفاع نسبة ضغطه مما جعل طبيبه يحذره من الانفعالات وعدم إرهاق نفسه كثيراً .

اقترب منه أحد زملائه المقربين إليه قائلاً

– هل قرأت المنشور الذي جاء اليوم من الإدارة ؟

– لا .. وماذا فيه؟

– البنك قرر الاعتماد على منتجات التجزئـة في المرحلـة القادمة

– بمعنى الاعتماد علي القروض متناهية الـصغر للعـاملين بالحكومة والقطاع العام وأصحاب الأنـشطة الـصغيرة دون الاعتماد علي القروض متوسطة الأجل للشركات والمشروعات الكبرى التي تدعم الاقتصاد وتوفر فرص عمل جديدة

- وأيضاً التوسع في باقي منتجات التجزئة مثـــل كـــروت الائتمان والتمويل العقاري والتعليم والسيارات وغيرها ...

- نعم تلك المنتجات الاستهلاكية التي تنهك وتدمي جيوب المواطنين البسطاء .. هذه البنوك همها الأكبر هو جـــني أكـــبر كمية من الأرباح دون النظر لأي شيء آخر .. أنـــت فـــاكر مسرحية خد الفلوس واجري .. هذا هو شعار هذه البنوك

- اسمع يا هشام .. نحن لا نمتلك شيئا نفعله غير التنفيذ .. وأنت تري التقارير التي توضع على رقابنا مثل حد السكين

وقف بجانبه قائلاً بصوت خافت :

- أنا عندي أولاد أريد أن أربيهم .. ويا ريتك لا تخبر أحدا بهذه الآراء

قالها وابتعد عنه وهو يتلفت حوله .

***

رغم حزن جمال على أخته وعدم مغادرته المستشفي إلا أنه لم ينس ماريا ..فبعد أن اطمأن علـــى أختـــه .. دأب علـــى الاتصال بها عن طريق الهاتف النقال لأكثر من عشرين مرة يأتي له صوت تلك المرأة تخبره بأن الهاتف ربما يكون مغلقاً .

يضغط جمال بعنف على هاتفه قائلاً لنفسه :

" ألهذه الدرجة لا تريد أن تكلمني ؟! .. أتكرهني لأني أريد أن أتزوجها ؟! .. لكني لن أيأس .. فإذا كانت هي أفروديت فأنا سيزيف الذي لا يكل ولا يمل من حمل صخرته بالرغم من سقوطها منه آلاف المرات " .

اتصل مرة أخري ليأتيه صوت السيدة المحبط ليعلن عن فشله من جديد .

***

في هذه اللحظات كانت ماريا على متن طائرة متجهة إلى اليونان بعد أن أخذت إجازة طويلة من عملها هروباً من مطاردة جمال لها فقررت السفر إلى أخيها .. نظرت من النافذة.. رأت مياه البحر المتوسط تشق الشرق عن الغرب في مهابه .

"آه يا بحري الحكيم .. أرشدني .. وجهني ما العمل؟

- لقد تخليت عما آمنت به بعد وفاة أختك

- لا .. أنا لم أتخل عن شيء فالحب ما هو إلا إذلال .. استعباد .. انتحار

- ولكنك تحبين

- لا .. أنا لا أحب .. إنها مجرد نزوة

- إلى متى تنكرين؟

- آه .. يا إلهي .. كم أنا غبية حمقاء .. كيف انزلقــت؟ كيف؟؟؟!!!"

(٨)

ضوء الشمس الساطع المنساب من خلال ستارة النافذة يضفي على الغرفة حالة من السكينه والصفاء .. ترقد زيزي في سريرها مشرقة الوجه هادئة النفس .. يدور في مخيلتها شريط حياتها كفتاة مرفهة تربت على يد الراهبات الفرنسيسكان .. تجلت لها إحدى احتفاليات مدرستها برأس السنه الميلاديه وهي تعرض أحد فساتين السهرة برشاقة العارضات المحترفات.. تتذكر رحلاتها إلى أوروبا مع أبيها .. تعليمه لها رقصات التانجو والشالستون .. تقديمه لها مجموعات الأدب الروسي والفرنسي.. موت أبيها المفاجئ جعلها تدخل حالة من الضياع.. إحساسها بفقدان شاطئ الأمان مما جعلها تقبل برجل يكبرها بعشرين عاماً زوجاً لها .. شعرت بأنه الملاذ الذي يعوضها عن حنان أبيها رغم اعتراض خالها ووالدتها إلا إنها أصرت على الزواج به .. عاشت معه كأميرة إلا أنها حرمت من الإنجاب .. وجدت مبتغاها في اهتمامها بأخيها الوحيد بل ابنها الوحيد .. عندما مات زوجها أقسمت ألا تتزوج مرة أخرى لإيمانها بأنها لن تجد مثيلاً له .. وعندما ضغطوا عليها لتغير رأيها لاسيما وهي في ريعان شبابها قالت لهم :

- زوجي الراحل أوصلني إلى درجة التشبع من كافة رجال العالم

تفانت في إدارة مدرستها ونشاطها الاجتماعي .. يطـرق الباب .. يفتح .. تندفع لبنى تجاهها قائلة :

- هل تريدين شيئا ؟

تبتسم زيزي وهي تمسك يدها قائلة :

- إجلسي بجواري

تنظر لها في حنان .. تجذبها نحوها .. تقبلها على جبينها قائلة لها :

- أنا آسفة يا لبنى .. لقد أرهقتك كثيراً .. لو كانـت لي ابنة أو أخت ما كانت ترعاني مثلك

تدمع عينا لبنى وهي تحتضنها قائلة :

- أرجوك يا زيزي أنت لا تعلمين ماذا تعنين لي .. أنـت أكثر من أختي .. بل أنت بمثابة أمي الروحية

- أنا سعيدة جدا لأنك وافقت علـى الانـضمام لهيئـة التدريس .. ستكونين عوناً لي في الأيام القادمة

جرس الفيلا يعلن عن قدوم ضـيف .. انـسحبت لـبنى لاستقباله .. وجدت خالد أمامها حاولت تجنبه .. إلا إنه اندفع يعترضها .. نظر في عينيها قائلاً بحدة :

- آخر شيء توقعته أن تتركي البيت

- آخر شيء توقعته أن أراك بعيني تخونني

- أنت فهمت غلط

- صعب أكذب عيني .. أرجوك طلقني بهدوء

يدوي الجرس من جديد .. ينفرج الباب عن يوسف .. يتجه إليهم .. يشد علي يد خالد يلامس أنامل لبنى ليرتمي كفها في لهفة في يده .. يلاحظ دموعها تتأرجح في مقلتيها .. يترعج يضع خالد يده على كتفه قائلاً :

- هيا بنا نرى زيزي

يتجهون إلي السلم بينما وقفت لبنى بعيون والهة تنظر لسمت الحبيب في صمت .. يفاجيء خالد يوسف قائلاً :

- تخيل يا يوسف .. لبنى تريد الطلاق

تتسمر قدما يوسف على درجات السلم .. ينظر له خالد مسترسلاً :

- طبعاً لا تصدق .. لكن هذه هي الحقيقة

سكت برهة ثم أردف قائلاً :

- تفتكر يا يوسف في رجل آخر في حياتها؟

نزل سؤاله علي يوسف كالصاعقة .. أحس بأن الهواء من حوله تلاشى .. زاغت عيناه باحثاً عن مخرج

"هل علم يحي للبنى ؟ .. ربما يشك في نظراتنا .. تصرفاتنا.. لكن كيف ولبنى نفسها لا تعرف بأني أحبها ؟ .. أكيد هو سؤال عابر لا يقصده"

ابتلع ريقه في صعوبة . تمالك رباطة جأشه قائلاً :

- وهل تتصور أنت أن هناك آخر في حياها ؟ يجب أن تجلس معها وتعرف أسباها

رمقه بنظرة متهكمة قائلاً في سخرية :

- أسباها .. أصعد .. أصعد يا فيلسوف عصرك

تعاود يوسف الهواجس بأن خالد يعرف شيء عن علاقته الصامتة بلبنى .. صعد درجات السلم المتبقية في صمت متحاشياً نظراته حتي وصلا إلي غرفة زيزي

***

صدح صوت المتحدث يجلجل في جنبات إحدى قاعات مكتبة الإسكندرية :

" عدم استقرار بيكاسو على نهج معين وقلقه المستمر وإحساسه الدائم بالتجديد جعله ينتقل من مرحلة إلى أخرى من الزرقاء التي يغلب عليها اللون الأزرق وتنوعاها بموضوعاها المأساوية .. إلى المرحلة القرمزية وفيها الألوان أكثر زهواً

وحرارة ثم اكتشافه أن جسم الإنسان يمكن تحويله إلى معادلـــة هندسية وهي بداية المرحلة التكعيبية في حياته " .

تململ جمال في جلسته .. فهو لم يأت هنـــا ليـــستمع إلى محاضرة في فن بيكاسو وأفكاره فهو يعرف الرجـــل ويحفـــظ مراحله وخطوط فرشاته .. لكنه عندما علم أن المعهد الثقـــافي البريطاني يقيم ندوة في مكتبة الإسكندرية جاء فـــوراً أمـــلاً في مقابلة ماريا .. من لحظة حضوره أخذت عيناه تنقب عنها لمح إحدى زميلاتها تدير الندوة .. فاضطر أن يجلس ليـــستمع إلى المتحدث على مضض .. تنفس الصعداء عندما اختتم حديثه .. سارع إلى زميلتها .. استخلصها بصعوبة مـــن بـــين بعـــض المهتمين.. كان جوابها مخيباً للآمال :

- إنها في أجازة طويلة

لم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى بيتها .. ربما يجدها متقوقعة تقرأ وتستمع للموسيقي كما تحب .. لكن جـــاء رد البـــواب محبطاً :

- لقد سافرت يا أستاذ

تذكر جمال أم حسن .. أعطى البـــواب لـــه عنوانهـــا .. استقبلته في شقتها المتواضعة بترحاب أخبرته بأن ماريا سافرت اليونان لأخيها ولا تعرف متى تعود .. نظرت له أم حسن بحنان قائلة :

- يا أستاذ جمال .. أنا أعلم أنك تحب ست ماريـا مثـل عينيك ولازم تعرف يا ابني إنها بتحبـك قـوى وأرجـوك لا تتركها

أعطى لها رقم هاتفه ووعدته بمهاتفته فور عودتها

***

أخذ د.خالد يراقب الدخان المتصاعد من سيجاره مـشكلاً سحباً رمادية تخفي وراءها جزءاً لا يستهان بـه مـن أثـاث الغرفة.. داعب بأصابعه خاتم زواجه مطلقاً العنان لأفكاره .

"تجرأت لبنى وطلبت الطلاق .. لبنى ذلك الكائن الضعيف الخجول واتتها الشجاعة وتركت المترل .. أكيد هناك من يشد أزرها .. أم أن رؤيتها لي مع سناء أطلقت شـياطين الجـرأة داخلها ؟ "

تلاشى باقي أثاث الغرفة .. أطفأ سيجاره .. هـب واقفـاً عندما لمح شبحاً ينبثق من بين السحب الرمادية .. ظهر تـاج أبيض .. أمعن النظر .. أشرق وجهها الساحر ينير فـؤاده .. دون أن يشعر احتضنها برفق كمن يحتـضن زهـرة نديـة .. خدرها بلمسات شفتيه على وجهها وجيدها كأنـه يغزلهمـا بكلمات العشق الصريح .. التهم شفتيها كمـا يلتـهم ثمـرة الفراولة .. تذوق شهد رضابها .. قادها برفـق إلى غرفتـه ..

أجلسها برقة على السرير .. انتزع ملابسها .. وجد جسدها يكسوه حبيبات الرغبة الجامحة .. تحسس أقبيتها المظلمة .. لامس أغوارها .. علت رائحة عرقها الأنثوي ليطغى على رائحة عطريهما .. أنصت لأنفاسها المتلاحقة التائهة .. أيقن أنه قد أيقظ بركانها الأنثوي وحانت لحظة اقتحام عرينها .. فجأة انتفضت واقفة مخلصة نفسها من احتلال جسده .. أخذت ترتدي ثيابها المتروعة وهي تبكي .. ارتعد خالد مما يحدث .. اقترب منها يسترضيها .. أبعدته بكلتا يديها قائلةً في غضب :

- إنت فاكرني إيه ؟ .. أنا لست فتاة رخيصة

حاول خالد تهدئتها .. لكنها استرسلت بعصبية :

- أنا المخطئة .. تصرفاتي معك جعلتك تتصور أني فتاة سهلة لكن عمرك ما فكرت إنها نابعة من حبي لك .. للأسف انت إنسان لا تعرف الحب

قالتها وأسرعت بالخروج بينما وقف خالد ناظراً لها في ذهول.. خطت خطواتها بوابة المستشفي وهى تتشع بالمهانة والذل .

"هل أمثالي لا يحق لهم أن يفكروا بالحياة الكريمة .. أليس من حقي أن أحيا مرفوعة الرأس ؟ أم كتب علي أن أطأطئها دائماً في خنوع العبيد؟!"

التقط هشام إحدى الصحف .. أقـرض البـائع ثمنـها .. تصفحها مسرعاً في طريقه إلى المقهى استرعاه مـا كتـب في الصفحة الأولى مما جعله يتوقف عن السير .. فها هي الأزمـة الاقتصادية توجه للاقتصاد الأمريكي ضربة قاضية .. فعشرات البنـوك والمؤسسات المالية تعلن إفلاسها .. يطوي الـصحيفة .. يواصل سيره .. يصل إلى المقهى .. يصافح زميله شريف .. يطلب كوباً من الشاي يبادره شريف قائلاً :

- ماذا بك؟

- رأيت ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية

- نعم الأزمة الاقتصادية الطاحنة

- والسبب توسع البنوك هناك في منتجات التجزئة بأنواعها وهذه البنوك لا تنظر إلى مسألة الجدارة الائتمانية للمقترضـين بل تتساهل فيها مقابل رفع سعر الفائدة للإقـراض والنتيجـة المنطقية هي تعثر أعداد كبيرة من المقترضين وعجزهم عن سداد أقساط ديونهم للبنوك مما أدى إلى انهيارها وبالتبعيـة انهـارت أعداد كبيرة من الشركات المنتجة للسلع والخدمات مما يزيد من البطالة والفقر ثم إن هذه الأزمة سوف تزحف إلى العالم كلـه لأنك تعلم أن معظم المؤسسات المالية والشركات الكـبيرة في العالم ترتبط بأمريكا باستثمارات كبيرة .

- ونحن هنا فمل تمويل المشروعات الكبرى التي تفيد الإقتصاد ونتوسع في التسويق لتلك المنتجات

يشير هشام بيده إلى الصحيفة قائلاً :

- تعلم كم موظفا قد سرحوا من وظائفهم بالولايات المتحدة الأمريكية ؟

- كم؟

- أكثر من ٢,٥٠ مليون موظف

- ياه .. ده رقم ضخم

- هذا يؤكد أن نظرية زبيجنيو بريجنسكى بدأت تتحقق

- برجينسكى مستشار الأمن القومي الأمريكي في عهد الرئيس كارتر

- نعم صحيح .. النظرية أسمها Tittytainment وهي لفظة منحوتة من كلمتين التسلية وحلمة الثدي والرجل هنا لا يفكر في الجنس بالطبع بل في الحليب الذي يفيض من ثدي الأم فبخلطه من التسلية المخدرة والتغذية الكافية مما تمن به الشركات العملاقة المسيطرة على سوق المال في العالم يمكن تهدئة خواطر ٨٠% من سكان المعمورة العاطلين حسب تقديراته في السنوات القليلة القادمة

- معقول هذا الكلام

أمسك هشام بالصحيفة قائلاً :

- النظرية بدأت تتحقق بالفعل

***

لم يذهب خالد إلى المستشفي بل مكث في منزله .. انزوى في مكتبه يدخن سيجاره .. يفكر في حاله بعدما أصبح المنزل خاوياً عليه لترك لبنى له .. وقلبه عليلاً لهجر سناء له .. فجأة أصبح وحيداً، هو من كان عراباً للماجنين .. ذو قلب مغلف بسوليفان المتع .. يتلاعب به قلب فتاة واحدة جعله حبها يرى نفسه في مرآة ضميره يعج بالشروخ .. النرجسية .. تحجر العواطف ..الاستغلال، عدم الإيمان بالحب

رن جرس الهاتف .. رفع السماعة :

- نعم يا دكتور عادل

جاء الصوت من الطرف الآخر منفعلاً :

- دكتور خالد عندنا مشكلة كبيرة مع ضيف حضرتك

- خير ماذا حدث ؟

- يا فندم اغتصب إحدى الممرضات بوحشية وحالتها في منتهى الخطورة

- ماذا تقول؟

- أرجوك يا فندم أحضر فوراً

***

على إحدى شواطئ جزيرة كريت .. تمددت ماريا علـــى أحد المقاعد الشاطئية المريحة محتمية من أشعة الـــشمس بمظلـــة ملونة .. منهمكة في قراءة كتاب في يدها .

" سأذهب إلى أرض أخرى .. سأذهب إلى بحـــر آخـــر .. مدينة أخرى ستوجد أفضل من هذه "

قرأت السطور مرة أخرى ثم تلفتت حولها قائلة لنفسها :

"ربما لا يعلم كافافيس أن البحر هو البحر بموجه، بزبـــده وسفنه .. هل تعلم يا شاعري المفضل أن المدينة هـــي المدينـــة بدروها ، ببيوتها وشخوصها "

نظرت إلى الكتاب في يدها متمتمة :

"حتى الكتب هي الكتب بأغلفتها ، بصفحاتها و سطورها.. فذكرياتي تصاحبني بأحزانها المرة إنها تشبه الناي الذي لا يكف عن الأنين .. يا شاعري .. أخاف أن أهيم في أزقة لا أعرفها.. يدب الشيب برأسي وتدركني الشيخوخة دون الوصـــول إلى أرض النسيان .. فما جدوى الهروب والانزواء في أشباه المـــدن

والبعد عن معشوقتي ؟..كم أوحشتني يا مدينتي .. بجمالك ..
بقبحك .. أنت ضاربة في أعماقي .. ألست أنت من قلت :

بأنها بهجتي ومنتهى حياتي ..

ذكرياتي ..

ساعاتي التي لقيت فيها متعتي ..

وبها تشبثت قدر مشيئتي ..

***

(٩)

دخل خالد غرفة العناية المركزة .. وجد الفتاة مسجاة على سريرها الطبي .. اقترب منها وجهها مختفي تحت الضمادات..أنابيب الحياة مغمدة في جسدها الضعيف .. أمسك تقريرها الطبي نظر فيه .. كسر في عظمة الوجه .. كسور في الضلوع .. هتك بالجهاز التناسلي .. فوجئ بدموعه تنساب من عينيه .. هو من كان يسخر من عواطف الآخرين.. من كان يؤمن بأن المشاعر نقطة ضعف يجب أن تغمد حتى يصل الإنسان لأهدافه .. ها هو يذرف الدمع على ذلك الكائن الضعيف المسجى أمامه فاقد الوعي .. تمتم قائلاً :

- الحيوان

دخل الدكتور عادل الغرفة .. وجه له خالد الكلام في غضب :

- أين هو الآن ؟

- رجال سفارته اصطحبوه من نصف ساعة

- والشرطة ألم تبلغهم بما حدث ؟

- رجال الخارجية منعوني

- يعني إيه ؟ .. ده مجرم ولازم ياخد جزاءه

يدخل أحدهم ليخبره بأن هناك مكالمة تليفونية له في مكتبه.. يخرج مسرعاً متجهاً إلى مكتبه يرفع سماعة الهاتف .. جاء صوت د.مدحت كمال على الطرف الآخر :

– أهلاً .. دكتور خالد اسمع مشكلة الضيف العربي لازم تنتهي

– يا فندم البنت بين الحياة والموت

– إتصرف .. الرجل مهم ومن مصلحتنا الموضوع يقفل فوراً

– يا فندم ده مش بني آدم .. هو فاكرنا إيه بيت دعارة ؟!

– جرى إيه يا دكتور خالد .. أنا قلت لك الموضوع يغلق وده أمر

سمع خالد إغلاق سماعة التليفون على الطرف الآخر .

***

خطت ماريا بقدميها باب شقتها .. ارتمت على أحد المقاعد بينما حارس العمارة يضع حقائبها .. سمعت صوت إغلاق باب الشقة .. تنهدت تنهد الحائر يومها على شاطئ كريت .. أفاقت من وهم الهروب وعزمت أمرها على العودة.. رنت في أذنيها كلمات أخيها عندما أفضت إليه بمعاناتها :

"يجب أن تفيقي من أوهامك .. سرعان ما ينتهي شـــبابك وتجدين نفسك وحيدة .. منزوية في أحد أركـــان بيتـــك دون اهتمام من أحد .. أنت تحرمين نفسك من تكـــوين أســـرة .. وتصرين على دفن نفسك مع أختـــك .. يجـــب أن تعـــودي وتجابهي أوهامك .. قاوميها .. حاربيها .. من أجل سعادتك"

وقفت .. دارت حول نفسها .. اتجهت إلى غرفة نومها .. بدلت ثيابها بطريقة آلية .. دون أن تدري صوبت نظراتها أعلى سريرها حيث لوحته بألوانها الداكنة الحائرة وكأنها تبحث عن مشاعر دافئة تجعلها زاهية مستقرة .. تتملص بنظراتها ليظهـــر أمامها الوشاح الأحمر الذي أهداه لها في عيد الحب .. تـــدمع عيناها .. تهرب إلى غرفة المعيشة .. وقفت وســـط الغرفـــة .. تتخيله يقف بجانب الشرفة ناظراً أمواج المتوسط .. جالساً على مقعده المفضل .. تنفست بقايا عطره في ذرات الهواء أسرعت إلى المكتبة .. تحسست كتبها .

" كل هذه الكتب التي قرأتها المثقلة بالأفكار والنظريات لم تهدني .. لم تشفني من مخاوفي" .

تقوقعت على أحد الفوتيهات متمتمة بصوت مخنوق :

- كل هذا لم يعد يجدي .. ذهب جمال ولن يعود

***

دلف هشام من باب البنك .. شعر بأجواء غريبة .. معظم الموظفين يتحاورون في دوائر، البعض الآخر يقف صامتاً بــلا حراك .. تساءل .. جاءت الإجابة من أحد الزملاء :

– لقد أصابت الأزمة الاقتصادية البنك

– هذا أمر متوقع

– لكن الغير متوقع أهم قرروا الاستغناء عن جزء كبير من عمالة البنك

اندهش هشام مما يسمعه .. استرسل زميله قائلاً :

– أسماء الموظفين المستمرين بالعمل لدى المدير وســيعلنها اليوم بعد انتهاء العمل

انقبض قلبه .. استولى عليه القلق فهو لا يثق في تقييم المدير له .. طوال اليوم لم يستطع أحد من الموظفين العمل .. توترت الأعصاب .. علت أصوات العملاء يشتكون من عصبيتهم .. كثرت الأخطاء تقوقع هشام وراء مكتبه .. حاول إلهاء نفــسه بالعمل .. فشل في إبعاد هاجس الاستبعاد عن فكــره مــرت الساعات ثقيلة .. بنهاية اليوم كانت الحالة المزاجية للكل قــد اكتست السواد .. تجمعوا في انتظار خروج المدير من مكتبه .. مرت الدقائق كالــسلحفاة .. انفــرج البــاب .. خفتــت

الأصوات.. تسمرت الأنظار بقامة المدير القصيرة وصلعته اللامعة ووجهه العبوس .. ممسكاً بيده ورقة بيضاء .. تكلم بلسان العالم ببواطن الأمور فأسهب بأن الأزمة الاقتصادية الطاحنة جعلت كبرى المنشآت المالية في العالم تقلص العمالة وأن البنك كان كريماً مع العمالة المستغنى عنها حيث أنه خصص لها مكافأة مالية تتحدد طبقاً لآخر تقييم لهم .

رفع الورقة التي يمسك بها مسترسلاً :

– في هذا الكشف اسماء المستمرين معنا .. أما الباقي فأتمنى لهم التوفيق في مكان آخر

ناولها لأحد العمال وأسرع بالاختفاء داخل مكتبه .. علق الكشف في لوحة الإعلانات .. هرولت خطوات الموظفين في اتجاهها متمنين البقاء على شط الأمان .. أخذوا يتزاحمون .. يتقافزون فوق الأكتاف .. الأنظار محلقة متمنية رؤية بعض الأحرف من اسم صاحبها .

اقترب هشام يملؤه الشك بنزوله إلى يم المجهول مما يعني البحث عن عمل جديد في هذا العمر الذي لا يقبله سوق العمل .. ثم أي وظيفة تلك التي ستدر عليه ما يجابه به التزاماته الكثيرة ؟ .. إنه حكم بالإعدام دون استئناف .. كل هذا يحدث في الأربعينيات من العمر التي من المفترض أن تتسم بالإستقرار الإجتماعي والمهني

اقترب بخطوات مرتجفة من لوحة الإعلانات .. انفض عنها البعض بين فرح وحزين .. يرفع هشام ناظريه إلى اللوحـــة .. تشابهت الأسماء .. تداخلت بعضها بالبعض .. علـــت دقـــات قلبه.. أخذ طنينها يصم أذنيه .. تذكر أنه ال "هشام" الوحيـــد بالبنك .. ثبت نظره على حروف اسمه الأول .. هـــــ ش .. انتفض نشوة عندما رأى اسمه .. ابتلع ريقه بصعوبة .. رفع يده بصعوبة فرك عينيه .. نظر إلى اللوحة ثانية .. ظهرت حروف الاسم بوضوح .. هـــ .. ا .. ش .. م .. نطقه بلـــســـــان جـــــاف عاجز .. هاشم .. بدأ يتصبب عرقاً .. أحس بوخز يعتري ربوع جسده المنهك .. أخذت عيناه تمسح الكشف في حركة هستيرية .. غشتهما ســـحابة ضـــبابية .. أغمـــضهما وفتحهما عدة مرات .. ازداد الضباب كثافة .. الوخز يتحول تدريجياً إلى تنميل .. ثقلت رأسه.. تراخـــت أطرافه .. حاول أن يتماسك .. ترنح .. سقط أرضاً .. الجمع يلتـــف حولـــه محاولاً إسعافه .

تراءت له سلسلة من الصور أمام عينيه .. يـــوم تعيينـــه .. احتضار أمه .. ترقيته .. زواج أخته .. وجه يوسف .. ابتسامة أخيه الصغير .

تلاشت الصور .. سكن بؤبؤ العين .

رن جرس الهاتف .. رفع يوسف السماعة قائلاً :

- نعم أنا باكتب فيه .. أعرف الرقم .. ربع ساعة وستجده على الفاكس .. مع السلامة

وضع السماعة .. ارتدى عدساته الطبية .. انهمك قلمه يخط الكلمات المتدفقة من قريحته على الورق ليكمل مقاله

"هل عكس القمع والسيطرة هو العري الصارخ المخاطب للغريزة الجنسية كما يقول الغرب وأن أعلى مرحلة لحرية الفرد هي من خلال تنوع المتعة واختلافها عن المألوف كما جاء في أدب دي ساد وأفكار الهيبز وأفلام البورنو عبر عشرات السنين الأمر الذي أصبح فيه الشذوذ الجنسي بأنواعه أكثر شيوعاً في العالم بأسره .. لكن هذا النوع من الحرية يؤدي إلى انفصال الجسد عن قيمته وهي روحه وسكينته وبها يبلغ أعلى درجات حريته .. ولكن كيف يصل الإنسان إلى قيمته ؟ وهو سؤال حير الكثير من الفلاسفة من أفلاطون حتى ديوي واتفقوا على إجابة واحدة وهي الحب .. ولكن في حالة تحول الحب إلى تجربة جمالية إبداعية يحقق فيها الإنسان ذاته وقيمته وذلك لا يتأتى إلا حين يصير الحب إفضاء أي مكاشفة بين العاشقين بكل حقائقهما وادراكهما الجسدي والحسي ولا يتحقق

الإفضاء إلا بالسكن والمودة والرحمة وهو ما تأمرنا به الأديان السماوية بتوافره في العلاقة بين الرجل والمرأة"

وضع يوسف قلمه .. عدساته .. تنفس الصعداء.. وقف .. اتجه إلى جهاز الفاكس ..أرسل المقال إلى المجلة .. اتجه إلى النافذة .. نظر إلى الشارع المكتظ .. الكل يهرول كأنه يهرب من شيء ما .. جالت حياته بخاطره .

"إنها مثل الشارع مكتظة بهواجس شتى تهرول من بعضها .. دائماً تأبى المجابهة .. فها أنا أسير لطيف عائشة سجيناً لعشق لبنى فهل سأعيش ما تبقى من حياتي راهباً في محراب سراب أم مراهقاً يجبن على البوح للحبيبة ؟ .. وها هي لبنى تلقى بقنبلة طلبها للطلاق .. ولا أعلم هل شعرت بحبي فكرهت خالد فأكون سبباً في التفريق بين زوجين .. هل أشفى جرحي وأدمي جرحاً آخر؟ .. أين مبادئي وديني .. أم تكون هناك أسباباً أخرى بعيدة عن مشاعري تجاهها ؟ .. آه من هذه الهواجس"

رن جرس الهاتف من جديد .. رفع السماعة .. استمع في صمت .. قطب جبينه .. ضرب جبهته بقوة .. سقطت السماعة من يده .. تهاوى على أحد المقاعد .. متمتماً في هذيان :

- هشام .. مات

***

لم ينعم جمال يوماً براحة البال بعد سفر ماريا .. واظب على الإتصال بأم حسن يومياً ودائماً يأتي الجواب :

- إن شاء الله يا بني تتصل قريباً

يقتله التفكير .. شحب لونه .. هزل جسده .. كان ما يصبره هو الذهاب لتريانون يحملق في نفس المكان الذي رآها فيه لأول مرة .. يقترب .. يتحسس مقعدها الخاوي بشوق بالغ .. يحتله بجسده يغمض عينيه .. يستنشق عطرها .. يحتضنها .. يسكره طراوة جسدها البض .. يفتح عينيه متأوهاً.

في إحدى الأمسيات كان يجلس في تراس الفيلا يحتسي قدحاً من القهوة وهو يتأمل شجر الليمون المحيط به .. تراءت له بقوامها السمهري ووجهها الملائكي .. اقتربت منه .. جلست أمامه .. بادرها قائلاً :

- لماذا هربت؟ لهذا الحد تريدين نسياني .. هان حبي لك لهذه الدرجة ؟

تنبت من بين شفتيها آهه .. تدمع عيناها

- اطمئني لقد قررت أن أكون واقعي بدوري وأحذو حذوك .. سأسافر أنا أيضاً لأنسى حبك

أفاق من خيالاته على صوت صرير المقعد المدولب لأختــه يقترب .. ضمته بقوة لصدرها .. دمعت عيناها .

"يريد أن يتركني مرة أخرى ألا يعلم ماذا يفعل لي فراقه .. عشت حياتي أتمنى سعادته وهو يخبرني بأنــه فــشل في حبــه وسيسافر بعيداً"

ربتت على كتفه قائلة :

- لماذا لم تخبرني من قبل؟ لماذا لم تعرفني بها؟

- هي لم تعطني فرصة

نظرت لوجهه الشاحب تحسست وجنتيه بكفيها .. قال لها:

- أنا لم أفكر في السفر إلا بعد أن أطمأننت عليك

- أفعل ما يسعدك يا حبيبي لكن لي عندك رجاء

- اؤمري

- أعط نفسك فرصة أخيرة

- أرجوك يا زيزي إنها لا تريد رؤيتي .. ثم أين هي ؟

- انتظر يا جمال عودتها .. لا تستسلم بسهولة إنك تقــول إنها حب حياتك فلا تتركه يتلاشى أمام عينيك .. يا حبــيبي

اسمع كلامي .. الحب الحقيقي شيء نادر الوجود لو الإنسان وجده يجب أن يستبسل في الحفاظ عليه ؟

***

الأقدام تتدافع .. الأبدان تتصارع .. الكل يريد المؤازرة .. يتسابقون على حمل الجثمان يختفي طرف البياض داخل القبر المظلم .. اللحظة التي تلقي برهبتها على الجميع .. السكون يعم و لا صوت سوى صوت ضربات المسطرين تسد الفجوات وصوت نحيب النساء الثكالى .. وقف يوسف وسط المشيعين يتداعى له صوت هشام :

"أنا ماذا فعلت في حياتي .. لقد عبرت عبور الكرام دون أثر كقدم في صحراء طمست معالمها مع حبات الرمال المتطايرة.. أنا بلا طرح فلست أديباً أو فيلسوفاً شارك بتنوير الفكر .. أو مخترعاً أضاء الدنيا بإسهاماته .. أنا لا شيء .. حياتي وموتي بلا فائدة"

– لا يولد إنسان بلا فائدة .. الحياة كرقعة البازل كل إنسان له مكان بها ليكملها.. ثم أنت كنت دائماً بوقاً للحقيقة العارية يكفيك أنك لم تنحني لم تركع في حياتك لأحد .

يرن صوت المؤبن داعياً للفقيد بالرحمة والمغفرة .. يخف النحيب .. تخشع الوجوه .. يصطف المعزون في طابور طويل..

يقف يوسف يتلقى العزاء في صديق عمره .. تمتد الأيــدي .. تنبت من بين الشفاه كلمات غير مسموعة .

- البقاء لله يا يوسف

ينظر لقائلها .. يجد جمال .. يرتمي بين ذراعيه باكياً لتنهار دفاعاته الواهية مطلقاً العنان لمشاعره :

- هشام مات يا جمال

***

جلس يوسف على أحد مقاعد مطعم جيانولا بعدما استقل جمال الحافلة إلى الإسكندرية، نظر يوسف إلى المارة في شــارع الجمهورية لفت نظره امرأة تتــأبط ذراع رجــل في ســعادة غامرة.. تذكر لبنى برغم حزنه إلا أن خبر طلاقها الذي زفه له جمال أضاء بصيص فرح في ظلمات حزنه .. هي فرصة عمــره لكي يقترب منها .. رفع فنجان القهوة إلى شفتيه .. تجمــدت يده .. تسمرت عيناه على من يجلس أمامه على بعد مائدتين .. رجل أنيق الملابس .. شعره الفضي .. شاربه الرفيع .. سيجاره الذي يداعبه بين أصابعه دون اشتعال .. إنــه هــو بــشحمه ولحمه.. اللورد .

قفز يوسف من مكانه مقترباً منه .. استقبله الرجل بابتسامه واسعة وبصوت رخيم قال :

- لقد عرفتك منذ دخولك .. لكني أردت أن تعرفني أنت

- أنا أكيد باحلم

قام الرجل احتضنه بشدة .. جلسا .. بادره الرجل قائلاً :

- ما شاء الله أصبحت ناقداً مشهوراً يا يوسف أنا أتابع أخبارك من الصحف

- الفضل لله ولك يا لورد .. لكن أين اختفيت طوال هذه السنين؟

- انتقلت إلى فرنسا .. انغمست في عمل دءوب .. لم أفق منه إلا على رحيل زوجتي وزواج ابني .. فجأة أصبحت وحيداً.

تنهد في حسرة .. نظر إلى يوسف في حدية قائلاً :

- تعرف يا يوسف .. هناك شاعر إغريقي يدعى فيلوستراتوس يقول أن الآلهة على دراية بما سوف يحدث من الأمور والبشر على دراية بالأحداث التي جرت أما الحكماء فهم على دراية بما هو وشيك الحدوث .. أنا لا أدعي الحكمة ولكن تجربتي الطويلة جعلتني أستشرف ما هو آت أيقنت أن أيامي الباقية قليلة فحزمت أمتعتي وعدت من حيث بدأت كالأفيال عندما ترتحل في أخريات العمر عائدة إلى مستقرها الأخير تنتظر لحظة النهاية في هدوء .

- لا تكن متشائماً

- أنا لست متشائماً .. بل هو درب جديد من الـــدروب يجب أن نوغل فيه

- اليوم وغل أعز أصدقائي فيه .. أنت تعرفه .. هـــشام .. الذي بحث لي عن عنوانه أيام التهجير

- نعم أتذكره

- ها هو الموت يقطفه وهو مطمئن في حميلته حارماً إياه من تفتح أحلامه

- على رسلك فالأحلام دائماً لا تنتهي فالمرء دائماً يـــتمنى تحقيق أحلامه قبل أن يموت وبعد تحقيقها يتمنى من جديـــد أن يؤجل الله موته لتحقيق المزيد من الأحلام والحقيقة أننا نخـــشى الموت ولا نريد أن نتذوقه .. معظم الناس يا يوسف متصورين في مخيلتهم أن الموت زنزانة مظلمة وكوابيس مخيفة ولا يجـــول بخاطرهم أنه ربما يكون حياة أفضل من نوع مختلف

قاطعه يوسف قائلاً :

- على هذا يجب أن نتقوقع منتظرين الموت لربما يكون بـــه حياة أفضل تاركين الحياة الدنيا بما فيها

-- أنا لم أقل ذلك بل يجب أن نعمل بحكمة نبينا التي تقول : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت

غداً" كما علي الإنسان ألا يعيش على أطراف الحياة خائفاً من أن يسبر أغوارها ليتمتع بها ويتعظ من تجاربها

دوت الكلمات الأخيرة في رأس يوسف لتبعث في أرجائـــه طيف لبنى

"نعم يجب علي أن أسبر أغوار تلـــك التجربـــة .. علـــي الاعتراف بحبي لها وها هي تحررت مـــن قفـــصها الحديـــدي أصبحت طليقة تنتظر من يأخذ بيدها من عتمة الخواء العاطفي"

***

(١٠)

لمحت لبنى من على بعد رجلاً يجلس مع زيزي في حديقـــة بيتها اقتربت خطواتها .. ارتجف قلبها عندما لاح سمته وبزغت ملامح وجهه .. إنه يوسف .. احتـــضنها بنظراتـــه . وقـــف مصافحاً .. بل معانقاً بأحاسيسه كل جزء فيها .. جلســـا .. تسمـــرت عيناهـــا عليه بلا رهبة أو خوف مـــن افتـــضاح أمرها.. طلاقها جعلها كالعصفور الطليق .. بـــادرت زيـــزي قائلة:

- لبنى .. يوسف سيلقي محاضرة غداً في مكتبة الإسكندرية ويدعونا للذهاب

أجابت بحماس :

- أكيد سوف نحضر جميعاً

رد يوسف :

- أنا يهمني وجودكم جداً

قالت لبنى بصوت فرح :

- المحاضرة في أي موضوع يا يوسف ؟

- إشكالية الحب في حياة الإنسان

- موضوع شيق ومهم

تاه يوسف في عيونها البراح ووجهها الرقيق .. كم يتمنى أن يجلس على كرسي اعترافه يروي لها كيـــف يكتـــوي بنـــار عشقها.. أفاق على رنين هاتفه المحمول .. نظر فيـــه ثم قفـــل الخط وهو يقف قائلاً :

- للأسف عندي ميعاد الآن

صافح زيزي التي قالت :

- أرجوك يا لبنى ودعي يوسف

- هو أنا غريب يا زيزي

سار الاثنان جنباً إلى جنب .. تمنـــت أن ينطق بما يعطـــي لها الأمل في حبه لكنه ظل صامتاً .. بادرته قائلة :

- لكن ما الذي جعلك تختار هذا الموضوع ؟

- موضوع الحب والحرية في حياة الإنسان يراودني منذ فترة لدرجة إنني كتبت عدة مقالات حول هذه المعاني آخرها يـــوم موت صديقي هشام .

سعدت لبنى لسيطرة معاني الحب على فكره مما أعطاها أملاً بأنه يشعر بها .. قالت بتأثر :

- البقاء لله يا يوسف .. أكيد تأثرت كثيراً

- هشام هو خلي الوفي .. كنا لا نحتاج لمفـــردات كـــي نتفاهم .. كانت عيوننا تقرأ ما تجيش به قلوبنا

تمنت لبنى لحظتها أن يكون هذا حالها معه .. أرادت أن تنسيه أحزانه فقالت بصوت ودود :

- لكن موضوع الحب من الأهمية بحيث يوضع في كتاب أفضل من أن يقال في محاضرة

- معك حق وهذا وارد ولكن من شجعني على هذه المحاضرة هي إدارة المكتبة .. رأت أنه موضوع مناسب ليواكب الإحتفال بعيد الحب .. كل عام وأنت طيبة

"كل عيد حب وأنت حبيبي" أرادت أن تقولها .. لكن إباء وخجل المرأة الشرقية يمنعها من الإعتراف بحبها فكان ردها تقليدياً :

- وأنت طيب يا يوسف

وصلا لبوابة الفيلا .. وقفا .. نظر لها قائلاً بصوت حنون

- سأنتظرك غداً

قالها وابتعد .. بينما وقفت مشدوهة

"لقد سئمت هذا الرجل يقول أنه يعتريه مشاعر حب جياشة ومع هذا لا يقوى على النطق .. هل أكون واهمة؟؟!!.. ولكن ما كل هذه النظرات المتلصصة وملامسات الأكف الراغبة لشهور طويلة .. ثم لقد أخبرني جمال بأنه علم بطلاقي

ومع ذلك لم تتحرك شفتاه بالمواساة أو التهنئة .. إنه حقاً لصنم حجري"

***

ركن خالد سيارته بشارع الكورنيش .. ترجـل منـها .. وقف ينظر إلى مراكب الصيد المتراصة بامتداد حي بحـري .. احتضن المنظر بشوق بالغ كأنه يراه لأول مرة .. رغم أنه أحد أبناء الحي إلا أنه لم يأت منذ زمن .. فقدماه لم تعد تعرفا غـير الأحياء الراقية بالمدينة .. أما أحياءها الشعبية التي تعيده لماضيه وأيام الحاجة أصبحت خارج ذاكرته .. مشى يستنشق هـواء المتوسط الممزوج برائحة شباك الصيادين .. وجد أمامه طفـلا صغيرا يضحك له .. يفلت من يد أمه .. يجري تجاهه .. بحركة لا إرادية يتلقفه .. يضمه إلى صدره .. يطبع قبلة على جبينه .. يناوله لأمه مبتسماً .. يقف متابعاً لهم وهم يبتعدون .

"لأول مرة أشعر بحنين للأطفال لم يخالجني ذلك الشعور من قبل .. بل كنت أهرب من نظرات لبنى المتسائلة لعدم اهتمامي بإنجاب أطفال .. أنا نفسي لا أعرف السبب ربما لصدها دائماً لي واشمئزازها من ملامساتي لها جعلني لا أريد أطفالاً منها .. أو ربما لخوفي من أن أكون أباً مسئولاً عن كائن جديد يـشغلني عما أنجزته من نجاحات في عملي .. لكـني الآن وبمجـرد أن

ضممت هذا الطفل إلى صدري أحسست براحة غريبة لم أشعر بها من قبل .. تمنيت لحظتها أن أرى طفلاً من دمي ولحمي"

عبر إلى الاتجاه الآخر .. دلف إلى أحد الأزقة .. مسحه بنظره .. بيوت ملتصقة .. حوانيت ضيقة .. نسوة واقفات على أبوابهن .. نظرات محملة بالفضول .. رجال على مقهى يحتسون الشاي ويشدون أنفاس الشيشة ويرمون زهر النرد في تراخ .. اقترب من أحد المنازل .. ارتقى درجاته مسرعاً .. طرق باب إحدى الشقق .. فتحت له سناء .. ارتسمت علامات الدهشة على وجهها .

- دكتور خالد !!!

- نعم دكتور خالد .. وحشتيني

- اتفضل يا بني

انبعث الصوت من الداخل .. انفرج الباب عن امرأة مسنة ترتدي السواد :

- أمي

قالتها سناء ثم أردفت :

- دكتور خالد يا أمي .. صاحب المستشفي التي أعمل بها

- يا أهلاً .. يا أهلاً .. اتفضل يا بني

دخل خالد .. وجد نفسه في حجرة بها أثـــاث بـــسيط .. أريكة بلدي وعدة مقاعد خشبية جلس على أحدها .. نظر إلى سناء قائلاً :

- أريد أن أتكلم معك

سارعت الأم قائلة :

- حضرتك قهوتك إيه يا بني؟

- مضبوطه يا حاجة

اتجهت المرأة إلى الداخل بينما وجهت سناء كلامها له قائلة بحدة :

- أرجوك يا دكتور أنا قـــدمت اســـتقالتي مـــن العمـــل بالمستشفي ولن أعود مرة أخرى

قاطعها قائلاً في هدوء :

- أرجوك .. اسمعيني ولا تتعجلي الرد

جلست في مواجهته .. قال بصوت يشوبه الحنان :

- أنا بحبك يا سناء ومن أول مرة رأيتك فيها وكـــل مـــرة لمستك فيها كانت بتنبت داخلي أشياء جميلة عمري ما شعرت بها مع أي امرأة أخرى

نظر في عيونها مسترسلاً :

- كلامك أخر مرة معي كان قاسياً .. لكنـــه كـــشف لي الكثير من الأمور .. علاقتي بلبنى و انـــشغالي طـــول الوقـــت بعملي.. طموحي السياسي .. كنت في متاهة لا مخرج منها .. كلامك أضاء لي الطريق .. إن ما أريده هو أن أحيا الباقي من حياتي مع من أحب بلا صراعات أو طموحات واهية .

توقف قليلاً ثم استرسل قائلاً :

- لقد لبيت رغبة لبنى في الطلاق .. أخذت إجازة طويلـــة من المستشفي .. قدمت استقالتي من الحزب و لم يتبق غير شيء واحد لأنعم بحياتي الجديدة

الأم تدخل بالقهوة .. يصيح بها خالد بصوت متهلل :

- أنا ليه الشرف يا حاجة إني أطلب يد إبنتك

- يا ألف نهار أبيض .. الشرف لنا يا دكتور

- متى يحضر والد سناء ؟

- كمان ساعة

- سأنتظره

قالها خالد وأخذ رشفة من فنجان القهوة .. بينما وقفـــت سناء مذهولة مما يجري .. اتجهت أمها إليها تحتضنها في سعادة غامرة

لم يصـــدق جمـــال عندما أتاه صوت أم حسن يزف إليـــه عودة ماريا .. ارتدى ملابسه على عجل .. لا يعرف كيـــف قاد سيارته إلى منزلها رغم أن المسافة قصيرة إلا أنها مرت دهراً عليه ..ارتقي درجات السلم قافزاً و وقف أمام شقتها يهدىء من أنفاسه المتلاحقة زافراً هواجس البعاد والفراق .. ضغط زر الباب .. فتحت له أم حسن مبتسمة .. تمتمت لـــه بـــصوت خافت :

- إنها في حجرتها

خرجت من حجرتها وجدته أمامهـــا .. علـــت ضـــربات قلبها.. كم تمنت احتضانه .. التشبث بتلابيبه راجية إيـــاه ألا يفارقها أبداً .

بادرها جمال قائلاً :

- كيف حالك يا ماريا ؟

تلعثمت الكلمات بين شفتيها .. ردت وهي تتحاشى النظر له .. فهي تعلم إذا تلاقت عيونهما فسوف تنهار متوسلة بـــأن يسامحها ويغفر لها هروبها .. لكنها اعتادت كامرأة ألا تعتذر أو تتوسل تاركة للرجل المبادرة دائماً فكان ردها جافاً :

- في أحسن حال

نظر إلى منظر البحر البادي من ورائها قائلاً :

- كم أفتقد هذا المنظر

أشارت بيدها إلى الشرفة قائلة :

- المنظر كله تحت أمرك

اقترب جمال منها .. نظر لها .. هربت بعينيها بعيداً .. تخطاها مقترباً من الشرفة .. ممتعاً عيناه بالسماء وهي حاضنة لمياه المتوسط في حنان الأم .. قال :

- علي أن أنتظر زبد البحر عله يلقي بأفروديت أخرى على شاطئه .. عندها ربما أحظى بها

- لم يعد زبد البحر يلقى على شاطئه سوى القواقع الفارغة

التفت إليها مثبتاً نظراته على عينيها التي زاغت منه :

- لم لا تنظرين إليّ ؟

- ولم أنظر إليك ؟

- أنت تهربين .. ليس لديك الجرأة لمواجهتي

- أنت واهم

- إذن أنظري لي .. لن تستطيعي لأن عينيك ستفضحانك

- ماذا تقول ؟

- أقول .. كل شيء بك .. يداك .. شفتاك .. تلعثم لسانك .. حركات جسدك .. إنهم ينادوني بأن أقترب .. ألتصق .. إنه الحب يا ماريا الحب

- قلت لك إنك واهم .. ربما إرهاقي هو ما يجعلني أبدو بهذا المنظر

تنهد جمال تنهد اليائس قائلاً :

- على العموم أنا جئت اليوم لأودعك

- ولماذا الوداع ؟ بل قل إلى اللقاء فمازلنا أصدقاء

قال بصوت حزين :

- لا بل هو الوداع .. سأهاجر إلى إيطاليا يا ماريا

ترنحت إثر سماعها جملته الأخيرة .. تراجعت خطوة لتتفادى السقوط .. استندت على المدفأة .. استدارت حتى لا يرى غرغرة عينيها .

اتجه إلى الباب .. كل خطوة تخطوها قدماه كانت تسحب روحها .. ندمت لتماديها في جفائها له .. جوارحها تصرخ فيها : "ماذا تنتظرين ؟ إنها فرصتك الأخيرة ناديه .. ترجّيه أن يبقى إنه حب عمرك"

أمسك مقبض باب الشقة .. انفرج الباب .. خطى خارجه.. دبيب قلبها يغمرها .. فقدت السيطرة على جسدها

المرتعش وهي تلمح اختفاء كعب حذائه عن ناظريها .. عندها أطلقت صوتها منادياً عليه .. احتبس في حلقها .. ابتلعت ريقها بصعوبة بالغة .. حاولت ثانية .. خرج صوتها ضعيفاً مشروخاً:

- جمال

ثبتت حدقتا عينيها على الباب ..انقضت عدة ثواني ثقـــال فكرت طيلتها في فقدانه للأبد .

بات تملص روحها من أرجاء جسدها وشيكاً لولا ظهـــور رأسه .. كتفه .. كامل جسده .. دبـــت الحيـــاة مجـــدداً في أوصالها .. اندفعت إليه محطمة أغـــلال خوفهـــا .. هـــاجره ذكرياتها التعيسة .. احتضنته بشدة قائلـــة بـــصوت ملـــهوف متهدج :

- لا تتركني .. جمال أنا أحبك .. أرجوك لا تسافر

أخذ يطبع على كامل وجههـــا قـــبلات راقـــصة مغلفـــة بالاشتياق مهدئاً من روعها قائلاً :

- تتزوجيني .. ماريا

هزت رأسها موافقة قائلة بصوت ولهان :

- نتزوج .. نتزوج جمال

***

في إحدى قاعات مكتبة الإسكندرية وقف يوسف مراد متحدثاً بهدوء قائلاً :

" كما بدا لنا مما سبق أن القصة البشرية بأكملها مكتوبة برحيق الحب بدءاً من الرسالات السماوية ومنتهية بوله العشاق.. وليس الحب في شتى أشكاله مجرد متعة جنسية كما يقول فرويد وليس خطيئة كما يتحدث بعض الوعاظ بدليل رأي الأئمة الكبار أمثال ابن حزم والذي يقول فيه بأن الدين لا ينكره والشريعة لا تمنعه .. إذ أن القلوب بيد الله عز وجل والحب ليس أيضاً سلوكا اجتماعيا كرأي الاجتماعيين له هدف وحيد وهو التناسل .

وكما أن الشعراء ولغتهم الشعرية لم يخبرونا بمعنى الحب بل حدثونا فقط عن معاناته .

ومما سبق يتضح بأن الحب في معناه الأشمل هو خروج عن العزلة .. تحطيم صنم الأنانية وذلك هو السبب في تلك القشعريرة التي تستولي على قلب الإنسان حين يلتقي لأول مرة بتلك الذات التي تنتزعه من براثن أنانيته .

إن روعة الحب تتجلى في كونه يغير من نفوس المحبين وكأن الواحد منهم يعيد تشكيل الآخر من حيث السلوك والأخلاق والتصرفات "

يتوقف برهة عن الكلام .. ينظر إلى الحضـــور .. يلفـــت نظره شعرهـــا الفاحم وقسمات وجهها الجذابه .. تـــسمرت نظراته عليها :

" لم تأتيني الشجاعة فقط عندما أكون بين الناس لأنظر لهـــا بلا حرج ؟ .. ماذا يعوقني لأعترف لها بأنها من تملـــك قلـــبي ووجداني؟ "

جذبت نظراته الثابتة الحضور .. علت الهمهمات .. أفـــاق على صوت جاره :

- يوسف .. هل هناك شيء ؟

قال بارتباك :

- لا شيء .. لا شيء

تناول كوب الماء .. ارتشف ما ينعش كيانـــه ثم استرســـل قائلاً :

" يقول أرسطو : إن حباً أمكن يوماً أن ينتهي لم يكـــن في يوم من الأيام حباً حقيقياً " .. لذا فإن ما يصبو إليه المحبون هو الوصول إلى الحب الحقيقي المتره عن الهوى المبني على الرغبة .. الحب الذي يقدم المحب فيه علي أقسى التضحيات من أجـــــل إسعـــاد من يحب .. الحب الحقيقي هو تحقيق الانسجام بـــين

الحاجات الحسية وبين النوازع الروحية دون المساس بالحرية التي ينشدها الإنسان على مر العصور .. فالحب الحقيقي لا يقيدها فهو ليس صورة من صور الامتلاك للآخر بل هـو يتطلـب موافقة المحبوب لتقديم حبه بمطلق حريته ورغبته .

أخيراً أقول بأن الفلاسفة القدامى درجوا على اعتبار القـيم ثلاثاً هي الحق .. الخير.. الجمال .. لكن المفكـرين المحـدثين أضافوا الحب كقيمة رابعة بل يذهب البعض لاعتبار الحـب قيمـة القيـم .. لأنه يقوم بذاتـه ويفجر داخـل الإنـسان ينابيع الخير والأخلاق والجمال .. فالحب أعزائي هـو مطهـر النفوس .. وشكراً "

دوّى التصفيق .. التف حوله بعض الحضور مناقشاً إياه .. تملص منهم بصعوبة باحثاً عنها .

- أحسنت يا ناقد

التفت إلى مصدر الصوت وجد زيزي بوجهها المبتسم :

- زيزي هانم .. عجبك الكلام ؟

- أنا معاك في كل كلمة

تلفت يوسف باحثاً مرة أخرى قائلاً :

- الجماعة فين ؟

قالت وهي تشير بيدها تجاه أخيها :

- ها هو جمال

نظر يوسف وجد جمال بصحبة شقراء جميلة .. عرف فيها ماريا التي سمع عنها كثيراً منه لكنه لم يجد لبنى معهم .. زاغت عيناه تمسح المكان .. اقتربا منه .. قال جمال :

- يوسف .. أقدم لك معجبة جديدة من معجبيك .. ماريا

- الوقت عرفت إنت ليه إعتزلت السفر .. ما هو لايعقـــل تسافر وتترك كل هذا الجمال

ابتسمت ماريا قائلة :

- شرف كبير إني أتعرف عليك يا أستاذ يوسف

- الشرف لي أنا وألف مبروك على ارتباطكم

التفت متجولاً بنظراته في أرجاء المكان .. ابتسم جمال ومال عليه قائلاً بصوت منخفض :

- لبنى خرجت في الهواء الطلق .. هيا اذهب إليها

قالها ودفعه بيده باتجاه الباب .. أسرع الخطى خارجاً .. لم تشغله تلميحات جمال .. فلا يهم .. فهو يريد إخبار العالم كله عن حبه خرج حيث المساحات البراح .. لفحه الهواء البارد .. تتراقص ضحكة عذبة تملأ وجهه بالبهجة .. فها هي الحبيبــة

تقف أمام إحدى لوحات الإعلانات .. النسمات الباردة تداعب فستانها الراقي ليلتصق بجسدها مبرزاً مفاتنها الرقيقة .. يقترب حالماً بالإلتصاق .. كم يريد أن يخط بقلمه سطور المتعة على ذلك الجسد الأمي .. وقف وراءها محاولاً النطق جاذباً سلسبيل الكلمات .. تنساب الأحرف مالحة داخل تجويف الفم لتخلق جملاً عاجزة .. ليزداد حنقه على أصحاب الأحاديث المنمقة .

ينظر أعلى كتفها قارئاً ما خط في لوحة الإعلان "ندوة عن الشاعر نزار قباني" هو يعلم أنه شاعرها المفضل .. فجأة وجد لسانه يرتدي مفردات نزار الجريئة قائلاً بصوت خافت خجول:

"كتبت أحبك فوق جدار القمر

أحبك جداً

كما لا أحبك يوماً بشر

ألم تقرأيها بخط يدي

فوق سور القمر"

ارتعشت أوصالها لكلماته الساحرة .. دغدغت جسدها البور .. ارتسمت ضحكة فرحة على وجهها وهي تلتفت إليه قائلة بصوت لاهث إثر ضربات قلبها المتلاحقة :

- نزار هو نزار .. يذهب بنا إلى القمر ويتركنا هناك تائهين ينطلق لسانه من محبسه مردداً ما يعتمر قلبه أياماً وشهوراً :

"حبيبتي إن يسألوك عني دوماً

فلا تفكري كثيراً

قولي لهم بكل كبرياء

يحبني .. يحبني كثيراً"

الكلمات تجعلها تطير في الفضاء البعيد .. تلتحف السحب.. تشارك الطير غناءه .. تقول بصوت يغلبه الخجل :

- إنها قصيدة نزار .. حبيبتي

تتهاوى جحافل خجله على أبواب هواها فيمسك بكلتا يديه ذراعيها ينظر لعينيها الولهتان قائلاً :

"لو أني لست أحبك أنت .. فماذا أحب؟"

تتصاعد نشوتها .. فها هو أبو الهول ينطق أخيراً .. تقول بصوت فرح :

- هذه خاتمة قصيدة لولاك لنزار أيضاً

في حركة مفاجئة يمسك يديها .. يلثمها بفمه قائلاً :

- لا .. إنها ليست خاتمة قصيدة لولاك لنزار .. بل هي خاتمة معاناتي الطويلة في حبك

لحظتها تمنت أن يفجر ينابيعها المخبـأة في أغوارهـا .. أن يعلمها أبجديات الحب ومفرداته حتى تنطلق مـشاعرها بكـل لغات العشق .. استعارت أسلوبه الشعري وانطلـق لـسانها يصدح معترفاً بعشقه :

"أنا حين أراك أحس الأشياء السهلة

أمنح كل عذابات حياتي مهلة

أكسر مرآتي .. أرجع طفلة"

- لم أكن أعرف أن شعر حليلة رضا بهذه الروعة

يقترب منها .. يلتصق بها .. ترتعد أوصالها .. يضمها إليـه دون التفكير فيمن حولهما .. تستـسلم لـه .. ينظـران إلى الكورنيش .. يقول لها :

- هيا بنا

كان الكورنيش هادئاً .. الطقس البارد جعل رواده يهربون إلى منازلهم .. أما هما فما يعتريهما من نـار الـشوق ولهيبـه يجعلهما يستطيبان برودة الجو لتلطف من حرارة جسديهما .

وقفت لبنى ناظرة حيث أضواء السفن المتلألئة على سـطح البحر الهادر قائلة بصوت ناعس :

- هل علمت أن خالد تزوج وسافر لقضاء شهر العسل ؟

التفت يوسف لها .. احتضن كفيها بين راحتيه .. ضغط عليهما برقة معوضاً لحظات الملامسة المسروقة .. نظر لها في حنان قائلاً :

- وهل علمت أن لبنى ستتزوج قريباً ؟

غرق وجهها في حمرة الخجل .. لمعت عيناها من فيض الهيام وضع ذراعه حول خصرها محتضناً إياها وسارا مبتعدين بخطوات وئيدة منتظمة تنم عن مدى تناغمهما .. أخذا يتداخلان ويندمجان .. أصبحا جسداً واحداً .. كالكرة .. له أيد أربع .. وأرجل أربع .. ووجهين ينبعث منهما إشعاعات نورانية نطلق عليها نحن : الحب .

***



